أساطير فرعونية

من تاريخنا القديم

ترجمة

كمال الدين الحناوي

الكتاب: أساطير فرعونية .. من تاريخنا القديم

ترجمة : كمال الدين الحناوي

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

أساطير فرعونية .. من تاريخنا القديم / ترجمة : كمال الدين الحناوي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٥٩ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٥ – ٩١٧ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٩٨٦ / ٢٠١٩

أساطير فرعونية
من تاريخنا القديم





مقدمة

ظل الناس إلى أمد قريب يظلمون الفراعنة والمصريين القدماء فيتهمونهم بعبادة الأصنام والحيوانات وما إلى ذلك، وليس أبعد عن الحقيقة من هذا الاتهام، فقد كانت للمصريين عقيدة ثابتة وإيمان وطيد، بإله واحد قوي يحاسبهم على كل عمل أو قول خلال حياتهم الدنيا، وهم يتوكلون على ذلك الإله في كل صغيرة أو كبيرة في حياتهم أو عملهم.

وقد كشف الحجاب عن بعض معتقداتهم فيما بعد الموت، من الدراسة العميقة المضنية للنصوص المنقوشة على جدار المقابر والمعابد وأوراق البردي، وأهم مصدر لهذه المعلومات هو كتاب الموتى، فهو يصف رحلة الروح بعد الموت خلال العالم السفلي، ويصف الصعاب والعقبات التي تعترضها خلال هذه الرحلة وكيف تتغلب عليها، وكانت نصوص هذا الكتاب تدفن مع الموتى لترشدهم إلى السبيل القويم، لتخطي تلك العقبات والوصول مع إله الشمس "رع" إلى العدوة الأخرى حيث حقول السلام.

وقد اكتظ كتاب الموتى بأسماء آلهة عديدة، لا داعي أن نزعج القارئ بذكرها، وتتحدث النصوص القديمة التي كتبت منذ ستة آلاف سنة، عن خالق عظيم هو الأصل في حياة كل شيء، ولكن قصور العامة عن إدراك

فكرة إله واحد يخلق كل هذا العالم جعل الكهنة يقربون الفكرة من أذهان الناس وذلك باتخاذ إله أو رب لكل شأن من شؤون الحياة، وكل إله من هؤلاء يعمل لحسابه الخاص مستقلاً عن الآخرين، وقد نتج عن ذلك أن أصبح عدد الآلهة المصريين كبيراً؛ لدرجة لا يمكن لأحد أن يلم بها حتى المصريين أنفسهم، ولكن الكهنة ورجال الدين والمثقفين من المصريين كانوا يعلمون أن هذه الآلهة جميعاً ليست إلا رموزاً تدل على قدرة الخالق العظيم، وما هي إلا مظاهر لقوته التي أوجدتهم ومنحتهم الحياة.

وأشهر هذه الآلهة جميعاً إله الشمس "رع" الذي يظهر كل صباح على الأفق الشرقي، بعد أن ينتصر على قوى الظلام، ويبدأ رحلته اليومية في قاربه المسمى بقارب ملايين السنين، وفي خلال رحلته يرعى عباده، ويرى ما يفعلون من خير أو شر، ويمنحهم النور والحرارة منبع الحياة والقوة، وفي المساء يمر خلف الجبل الغربي، ثم يغوص في ظلمات العالم السفلي، ثم يمضي على المجرى المرعب متغلباً على جميع أعدائه حاملاً معه أرواح الذين مثلوا أمام محكمة أوزيريس ووجدهم من الأخيار، وتنتهي رحلته عند الفجر فيخرج من العالم السفلي ليبدأ رحلته من جديد عبر السماوات.

وقبل أن يعرف الناس الكتابة بزمان طويل كانت الصلوات تقام في المعابد للآلهة، ورغم ذلك فإن خاصة المصريين كانت تعتقد بوجود إله عظيم حكيم خالد، لا يستطيع إنسان أن يدرك كنهه ولكنه يراقب الناس ويستمع إلى صلواتهم ودعائهم، وفيما يلي جزء من ترنيمة كان الكهنة

يرتلونها كل يوم في معبد آمون بطيبة، ومعانيها تعطي صورة واضحة عن العقيدة الصحيحة للمصريين القدماء:

الله واحد أحد ولا شريك له.

الله واحد وقد أبدع مخلوقاته وحده.

الله روح غامضة لا يراها الإنسان، خفية عن كل شيء.

الله روح الأرواح، روح مصر المقدسة.

الله هو الله منذ البداية، هو الله قبل أن يكون شيئا.

هو سيد المخلوقات، وأب الجميع، هو الإله الدائم..

الله هو الموجود الخالد الذي لا يفنى، لا بداية له ولا نهاية.

الله لم تكن له بداية، وليس له نهاية، وسيظل كذلك على الدوام..

الله خفي، لا يعرف إنسان شكله ولا شبهه.

لا تعلم الآلهة مداه ولا الناس..

الله هو الحق، ويحيا على الحق، إنه الملك الحق.

الله هو الحياة، ولا حياة للناس بدونه، هو البداية، هو الواحد الأحد..

هذه صورة من عقيدة المصريين القدماء، العقيدة التي يعرفها رجال الدين والمثقفون، لا تلك الأفكار الساذجة التي تتلاءم مع عقلية الجماهير، والتي اخترعها الكهنة لتقريب الدين إلى عقل الشعب، وقد جمعت هذه الأساطير من مصادر مختلفة موثوق بها وأشهر الأساطير المصرية القديمة، أسطورة إيزيس وأوزيريس، أو قصة الصراع بين الخير والشر، وهي قصة خالدة باقية، تتكرر في كل دين، وتتخلل كل عقيدة، وإن كانت قد بدأت من المصريين القدماء، وسيجد القارئ مشابهة كثيرة بين هذه الأساطير والقصص الذي جاء في كتب الديانات المختلفة سماوية وأرضية.

وبعد، لعل القارئ أن يجد متعة في قراءة هذه الأساطير التي ابتكرتها مخيلة هذا الشعب العظيم، ولعله أن يجد لها صدى في نفسه كما وجدت لها صدى في نفسي.

كمال الدين الحناوي

أحزان ايزيس

-١-

هناك في جنوب الوادي، وعلى شقة خصيبة من الأرض تحف بمجرى النهر المقدس، كانت تقبع مدينة طيبة، ولا تزال أطلالها إلى اليوم ماثلة للعيون تنبئ عن أمجادها وعظمتها، فقد كانت في زمانها أروع مدن العالم، ولكنها حين بدأت هذه القصة، كانت لا تزال في مدارج طفولتها، فلم تكن معابدها الفخمة قد شيدت، ولم تكن الآلهة معروفة لأهلها، فلم يكن آمون معروفاً لهم، ولم يكن في مقدورهم أن يدركوا من هو "رع" ذو الجلال.. لم تكن آلهتهم في ذلك الحين تعدو التماثيل من خشب أو من حجر، وكانوا يقدسون الشمس منبع الحياة، والنهر الأزلي الخالد: النيل...

وقد ابتنوا لآلهتهم هذه معبداً على بقعة مقدسة من الأرض يعبدونها فيه ويقدسونها، كان ذلك المعبد حسن البناء، متلفاً بخميلة من الأشجار ذات الظلال، وكانت تتفجر عند أقدام درجة عين نقية الماء رقراقته، ألف الناس عذوبتها وصفاء رشاشها المتناثر، فاعتقدوا أن الآلهة قد باركتها جزاء ما يقدمون لها من فروض التقديس والتعظيم.

وفي صبيحة محرورة من صبائح الصيف، كان أحد السقائين يجر قدميه إلى تلك العين وقد تدلت على ظهره قربة من جلد الماعز، كان شاباً فتياً، ولكن ظهره قد انحنى لكثرة ما تحامل على نفسه وهو ينوء بحمل هذه

القربة من جلد الماعز تكاد تنتفض امتلاء، إلى البلدة، فلما التقى بسقائها الفتى سأله:

– ولم العمل في هذه الساعة....؟

– بل قل ولم العمل على الإطلاق...؟

– إنك محق يا صاحبي ولكن الحاجة تدفعنا إلى ذلك، ولولاها لكان كلانا مطمئناً في كوخه، ومع ذلك فلن يلومنا أحد إذا استرحنا فإن القيظ يكاد يصهر الرمال، مالك اليوم كئيب النفس...؟

– لست أحس ذلك، ولكن لابد للإنسان من أن يأكل، ولن يستطيع ذلك حتى يعمل...

– إن ورائي كثيرين لا بد من إطعامهم، وأبي الشيخ مريض، وعلى عبثهم جميعاً....!!

– حسناً... أما أنا فلن أعمل قبل حلول المساء حتى يلطف الجو.

وانصرف السقاء الآخر إلى كوخه حتى يحل المساء، أما باميليس فقد تابع زميله بنظره وهو يبتعد، وأحس بالمرارة تمض قلبه لهذا الحظ العاثر الذي يكبده كثيراً، وعندئذ تذكر تلك الأفواه الجائعة تنتظر عودته في الكوخ، وأدار سقاؤنا الفتى وجهه نحو العين، وانطلق في طريقه لا يلوي على شيء.

وخيل له حين ملأ قربته من ماء العين أنه سمع نداءً باسمه، فأدار بصره فيما حوله ولكنه لم ير أحداً..

– باميليس...

رن النداء في أذنيه واضحاً جلياً فلم يعد هناك مجال للشك في هذه المرة، ونظر أمامه، وأخذ يرفع القربة الممتلئة على ظهره المنحني وقد جحظت عيناه إلى الدرج المؤدي إلى المعبد.

– باميليس ...

انطلق الصوت للمرة الثالثة فألقى السقاء المسكين – دون أن يحس بما فعل – ألقى بالقربة على الأرض، واستحال ما تحت قدميه إلى بركة صغيرة.

– لا تخف..!!

سمع باميليس هذه العبارة، وخيل لحواسه المبهورة أن الصوت ينبعث من التمثال القائم أمام المعبد.

– لا تخف.. ولكن انطلق إلى البلدة، وبشر الناس بمولد أوزيريس سيد الأرضين ثم أعلن هذه البشرى للناس في طول البلاد وعرضها.

وتلاشى الصوت، وفي اللحظة نفسها انطلق باميليس كالمجنون لا يلوي على شيء وقد ألهاه الخوف عن قربته تلك، المصنوعة من جلد الماعز، ولم يتوقف حتى وصل إلى كوخه المجدول من الغاب على شاطئ النهر.

وقص سقاء الفتى قصته على زوجته فظنت به خبالاً، وحسبت شدة القيظ قد أثرت على رأسه، فاضطرب ذهنه ونصحته ساخرة أن يعود أدراجه إلى العين ليسترد قربته فقد يعثر بها عابر سبيل فيلتقطها، أما أبوه الشيخ فقد سمع طرفاً من القصة وهو مستلق على فراشه في أقصى الكوخ، وقد أغمض عينيه الذابلتين، ودعا إليه ولده وسأله أن يعيد القصة على مسمعيه...

ولما انتهى باميليس من قصته قال الشيخ في صوت مرتعش:

– إنه لصوت السماء يا بني، فاذهب وأعلن البشرى كما أمرت... أما أنا فكم كان يسعدني أن أعيش حتى أسمع هذه الأنباء السارة.. باركتك الآلهة يا بني..!!

وأدار الشيخ المحتضر وجهه إلى الحائط ولفظ آخر أنفاسه، وعندئذ انطلق باميليس صادعاً بما أمر. وهكذا أعلنت البشرى بمولد أوزيريس.

-٢-

وذات أصيل في مطلع الصيف، والشمس معلقة في الأفق فوق الهضاب، وقد سبحت في بحر من القرمز والأرجوان والذهب، وقف رجل ضخم البناء فارع الطول في ظل شجرة الحور القريبة من المعبد، كان متناسق الأعضاء مهيب الطلعة يبدو أكثر من الفنانين من البشر، فقد كانت تلوح عليه سمات الخلود..

وكانت تقف إلى جانبه امرأة لم تشرق الشمس على أجمل منها: وجه حلو رقيق، وبشرة خمرية مشرقة السمرة وشعر كستنائي غزير ينسدل حتى عقبيها فيبدو تحت أشعة الشمس الواهنة، وكأنه أسلاك دقاق من النحاس الأحمر..

وعندما غاص قرص الشمس وراء الأفق الغربي انسكبت على التلال الداكنة حلة من الأرجوان الصافي، وارتسمت على صفحة النهر أطياف حمر كألسنة اللهيب، وعندئذ تحولت المرأة الجميلة إلى الرجل الخالد، واتجها إلى الشمس الغاربة في ضراعة وخشوع، واستغرقا في صلاة قصيرة "لرع" إله الشمس.

ولما انتهيا من صلاتهما، فرش الرجل عباءته على الصخر، ودعاها للجلوس ليستريحا، وجلسا وأخرج من جيب ردائه ناياً أخذ ينفخ فيه، فتنبعث منه أنغام مقدسة، لا يمكن أن تكون من صنع الأرض، إنها أنغام من السماء.. إنها لترق حتى لكأنها حفيف الأجنحة بين الغصون، وتصفو

حتى كأنها نداء طيور البحر تدعو رفاقها، وتعنف حتى تصبح كهدير الشلال حين ينحدر من أعلى الجبل، ثم ترق فتصبح كخرير الجدول يتلوى على الحصباء في مجراه، ثم ينتهي اللحن بصوت أجش غليظ يشبه صوت الجوقة في تناسقه وانتظامه.

وأخذت السيدة الجميلة تترنم بأغنية عامرة بالحنان، تصحبها في الغناء نغمات الناي، كان غناؤها رقيقاً هادئاً، كان يعبر عن السرور والحزن معاً، وتلمس في نبراته الصفاء والانقباض على السواء، وينتقل بك من هبوب العاصفة العاتية إلى شروق الشمس الناعم، وكان إلى ذلك يعبر عن الحب اللا نهائي الأصيل.

وبينما تلك الأنغام آخذة في التلاشي، إذ بشيخ وقور شاحب الوجه، متشح بعباءة بيضاء، متمنطق بحزام من ذهب، يقبل على عابري السبيل يهذي، وقال الشيخ وقد ارتسم على وجهه المتغضن مزيج من الاحترام والخوف والعجب:

– طاب مساؤكما...

– ومساؤك يا أبتاه.. هل تستطيع أن تدلنا على مأوى في هذه الناحية؟ إننا سنواصل الرحيل ولكن يسرنا أن نستريح هنا بعض الوقت.

وصمت الشيخ قليلاً ولكنه أخذ يحدق فيهما بعينيه محاولاً أن يستشف أفكارهما، وأن ينفذ إلى دخائلهما، ولم يلبث أن جثا على الأرض

وأكب برأسه على نعلي الرجل والمرأة يقبلهما واحداً بعد الآخر ثم رفع رأسه قائلاً:

– إنني كاهن هذا المعبد القريب، وقد أحطت ببعض أسرار السماء، وقد نبئت منذ أمد طويل بأنكما قادمان، ولكنني لم أكن أتصور يوماً أن أكون أول من يحييكما على الأرض..

وبعينين فيهما ولاء وإكبار، أخذ الرجل المقدس يشبع نظره من الغريبين ثم سألهما:

– هل لمولاي ومولاتي أن يتنازلا ويقبلا الضيافة في منزلي الفقير؟

وأجابه الرجل:

– إننا أقبلنا عليك أولاً لأنك مخلص في خدمتك، صادق في إيمانك، وأننا لنتقبل كرمك بالشكر، ولكنني أستحلفك ألا تحدث أحداً بما تعلم من أمرنا، فإن علم ذلك رهن بمشيئة السماء..

وقال الراهب الشيخ، وهو يجثو حتى لتكاد جبهته تمس التراب

– إن عبدك يسمع فيطيع...

– قدنا إذن إلى دارك... تعالى يا إيزيس ولنصحب الشيخ فإن الوقت قد تأخر...

وقالت إيزيس وهي تتأبط ذراع الرجل:

– لتصحبك بركات رع أينما ذهبت يا أبتاه...

ثم سارا قدماً، وهكذا ظهر أوزيريس وزوجته إيزيس في أرض مصر..

–٣–

أخذ أوزيريس وإيزيس يترددان كل يوم على البلدة الرابضة في ظلال المعبد العتيق، ولم تكن القصور الفخمة التي نشاهد أطلالها، ولا المعابد الضخمة التي نرى بقاياها، ولا طرق الكباش التي اشتهرت بها طيبة، لم يكن ذلك كله قد عرف بعد، فقد كان لا يزال في ضمير الغيب، أما قصر الملك ودور النبلاء فقد بنيت من الحجر، وبقية الدور أقيمت على دعائم من خشب، أو ابتنيت من الطوب واللبن.

وكان الناس يتركون أعمالهم عندما يمر بهم الغريبان وينظرون إليهما وهم مأخوذون بروعتهما، فلم يسبق لهم أن رأوا رجلاً في هذا الجلال والنبل، ولم يروا من قبل امرأة بهذه الحلاوة والرشاقة محببة إلى جميع القلوب، وحتى ملكهم وملكتهم كانا لا يذكران إذا ما قورنا بهذين المخلوقين من أشباه الآلهة، وكأنهم أحسوا بغريزتهم أن الغريبين ليسا من أبناء هذه الأرض، فقابلوهما بمظاهر الإجلال والاحترام..

ولعلك أدركت أسئلة لا حصر لها كانت تدور في منزل الكاهن عن الضيفين اللذين حلا به، ولكن الكاهن العظيم احتفظ بالسر لنفسه، وضن به حتى على أهله، فلم يعلموا أكثر مما علم الناس وكانوا يجيبون كل سائل قائلين: "إنهما عابرا سبيل، ولقد لقيهما آني الكاهن في ظل أشجار المعبد، فسألاه أن يضيفهما فترة، وهذا كل ما نعلمه" أما بأي طريقة جاءا ولم أقبلا.. فلم يكن الناس يلقون عن هذا كله جواباً، وكان الغموض الذي أحاط بمقدمهما يزيدهما رهبة ويزيد الناس خشية لهما، وقد تأصلت هذه الخشية في نفوس الناس على مر الأيام وتحولت إلى تقديس مشوب بالخوف.

وأخذ أوزيريس وإيزيس يختلطان بالناس، ينصحان هذا ويساعدان ذاك، ويشجعان آخر، وحيثما كانت الحاجة ماسة إليهما وجدتهما ماثلين، فلم تكن هناك يد تلطف من حرارة الحمى أرق من يد إيزيس، ولم يكن أحب من صوتها الحنون إلى الطفل المريض العاني، وكان مما يلفت النظر ويسترعي الانتباه أن المرض كان يذايل كل من تلمسه.

وذات يوم سقطت كتلة من الخشب على طفل صغير، وبينما أمة حائرة لا تجد سبيلاً لتخفيف الألم عن طفلها الصغير، إذا بالسيدة الغامضة إلى جوارها، وتناولت إيزيس الطفل بين ذراعيها في رقة، وكأنما مسه السحر، فانفرجت أسارير الوجه المنقبض، وسكنت الأوصال التي كانت تتلوى، ثم مرت بأناملها على جبهته، ثم مسحت بها على صدره وقلبه، ويا للعجب.. إن عينيه تتفتحان في بطء، وإن شفتيه لتفتران عن ابتسامة

حلوة، وأخذ الطفل ينقل بصره في دهشة بين أمه وبين إيزيس، ثم صاح فجأة "أماه.. أماه.. إنني ذاهب مع السيدة الجميلة.. إنها تناديني يا أماه.. إنني ذاهب إلى مكان جليل، ولن أحس ألماً بعد الآن."

ومات الطفل في المساء، ولكنه لم يتألم مرة أخرى، أما أمه الثكلى فقد أدركت، ثم صمتت...!!

وكان أوزيريس بدوره مشغولاً على الدوام، كان عمله في الحقول أكثر منه بين دور البلدة، فقد علم الناس صنع المحاريث، وابتكر لهم طريقة يرفعون بها الماء من النهر المنخفض إلى الأرض المرتفعة العطشى، بدلاً من حملها على ظهورهم كما كانوا يفعلون، ثم علمهم بعد ذلك كيف يسهلون العمل على أنفسهم، وكيف يفيدون من الأرض التي فيها يكدحون.

وفي الأمسيات الرطيبة كان يجلس ومن حوله زحام من الريفيين صغاراً وكباراً، وكلهم فاغر فاه من الدهشة، بينما أوزيريس يوقع على نايه بعض ألحانه العلوية الخالدة، وقد علم بعضهم التوقيع على الناي، وكون منهم جوقة موسيقية، كثيراً ما عزفت ألحانها في ضوء القمر المنسكب، وكانت رعيته البسيطة الساذجة لا تتركه يعود إلى داره حتى يرتل ترنيمة حبيبة إلى النفوس، فهي تتحدث عن الأرض والسماء، والحياة والموت، وتتناول كثيراً من الأشياء وراء مداركهم ومعرفتهم.

ولم يمض وقت طويل حتى سمع الملك بأمر الغريبين، وبما يدور حولهما من أقاويل تشبه المعجزات، فأرسل في طلب أوزيريس، فلما مثل بين يديه دار بينهما حديث بدأه الملك قائلاً:

– من تكون أيها الرجل؟ ومن أين أقبلت؟

– إنني رجل أسفار وأخو رحلات، وقد سمعت كثيراً عن أرض مصر وعن أهلها، فرغبت في رؤيتها، وقد جئت من أرض آلو وسأظل هنا فترة قصيرة ثم أرتحل ثانية إلى هناك.

– وأين تقع هذه الأرض التي ذكرت؟ لقد سارت جيوشي شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، ولكنني لم أسمع بهذا الاسم من قبل؟

– إنها تقع إلى الغرب البعيد، وراء أبعد الحدود التي يصل إليها الإنسان.

– وكيف جئت إذن؟ ما دمت قد استطعت المجيء إلى هنا، فإنني أستطيع الذهاب إلى هناك، فصف لي الطريق إلى هذه الأرض الجديدة فإنني أحب أن أراها.

– هذا لن تستطيعه ولن يستطيعه إنسان، فإنها بعيدة جداً.

– إنك لن تعود إلى بلدك إذن أبداً!.؟

– ما دمت حياً.. سأواصل الرحيل ولكنني لا أتوقع أن أصل إليها ما بقيت لي الحياة..

– دعنا من هذا إذن؟ لقد سمعت الكثير عن قدرتك وحسن تدبيرك، وأود أن تظل في قصري بين رجال البلاط والسحرة حتى يأخذوا عنك الحكمة..

– لك ذلك يا مولاي، ولكنني لا أستطيع التنكر لواجبي حيال الفقراء من الناس، وأحتفظ لنفسي بحق مساعدتهم، شأني معهم قبل اليوم..

وهكذا كان، وأخذ أوزيريس يمضي كل يوم إلى البلاط فيجلس إليه رجال الحكمة يأخذون عنه كل يوم جديداً، وطالما توسلوا إليه أن يبقى معهم في القصر، فلم يعر توسلاتهم التفاتاً، وقال لهم أنه يفضل البقاء في دار الكاهن آني الذي سبق الناس جميعاً إلى صداقته.

وكثيراً ما كان أوزيريس يتحدث إلى جلسائه عن المعبد الذي فيه يتعبدون، قائلاً لهم أن التمثال الذي يجثون أمامه عاجز لا يستطيع أن يسدي إليهم معونة ما، ولكن فوقهم موجوداً أعلى، يدفع عنهم الأذى ويرعاهم ويستجيب لدعائهم، وأن الشمس التي ينبعث منه الضوء والحرارة إنما هي آية من آيات ذلك الموجود، وأن نهر النيل الذي يروي الأرض ويغذي الزرع، إنما أرسله عليهم من السماء، فإذا عاشوا عيشة النبل والإيثار ففي مقدورهم أن يلحقوا بمملكة الإله العظيم حيث يعيشون في رفاهية ومجد، وبهذا الأسلوب بث أوزيريس في نفوسهم فكرة تقدير الموجود

الأعلى، وقد سهل عليه سبل الإقناع، أن أعماله كانت خارقة تبلغ حد الإعجاز، حتى أن سامعيه كادوا أن يحبسوه هو نفسه الإله العظيم الذي يحدثهم عنه..

-٤-

وفي يوم من الأيام التي يجلس فيها الملك للحكم بين الناس، دخل أوزيريس البهو فوجد سحابة من الصمت تخيم عليه، ورأى الضابط الشاب حوتب يقف وحده على معبدة من الناس، وقد رانت على وجهه سحابة من الوجوم، كان ذلك المحارب الشاب ممن أسروا قلب أوزيريس فهو يتحمل التبعات الجسام دون خوف ويسلك مسلك الفرسان، ويعالج الأمور في صراحة مرحة.

وعبر أوزيريس البهو إلى حيث يقف المحارب الشاب وسأله:

– ماذا حدث يا حوتب؟ وفيم وقوفك واجماً هكذا لا تمرح مع الرفاق؟

– إنني أجنبهم المتاعب بابتعادي عنهم، ألا تعلم أن الملك سيصب غضبه عليك إذا رآك تتحدث إليَّ الآن.

ولاحظ أوزيريس أن رجال البلاط ينظرون إليهما ويتهامسون فسأل حوتب:

– وما ذنبك...؟

– ذنبي هو أنني لم أتملق ذوي المناصب، ولم أسكت على الخطأ يقترف أمامي، وبهذه الطريقة صنعت لنفسي أعداءً كثيرين، فاتهمني هؤلاء الأعداء بالتآمر على حياة الملك، وهاأنذا هنا اليوم لأحاكم..

– آه... إذن فهناك من تغضبهم شجاعتك، ويؤذيهم صدفك..؟!

نطق أوزيريس بالعبارة الأخيرة في عجب مقرون بالاستياء، ثم تحرك في خطوات بطيئة متثاقلة ليتحدث إلى كاهن المعبد، بينما رأسه منكس وذهنه غارق في تفكير عميق..

ودخل الملك البهو في تلك اللحظة، فانصرف انتباه رجال البلاط إلى ما يقول، ولكنه لم يقم كعادته بعد أن انتهى حديثه، بل جلس على كرسي العرش، ثم سأل بعد برهة في عظمة وتعال:

– هل عبدنا حوتب هنا...؟

فخطا الشاب إلى الأمام وانحنى في إجلال ثم قال:

– نعم هنا أيها الملك...

– لقد تناهى إلينا ما يشكك في ولائك، فأنت متهم بالتآمر على عرشنا، فهل لديك ما تدفع به التهمة؟

– أتوسل إلى مولاي أن يدعني أستمع إلى الادعاءات بالتفصيل.

وقطب الملك جبينه، فإنه لم يألف أن يتشكك أحد فيما يقول، ولكنه كظم غيظه ونادى قائد حرسه وأمره:

– اقرأ ما ورد في الادعاءات...

– عبدك حوتب، النقيب في جيش جلالتك، متهم بالتآمر على سلامة الملك والبيت المالك، بل ويحرض الآخرين على مساعدته في هذا العمل الشرير، وقد حاول بث روح التمرد في نفوس قوات جلالة الملك حين كان يؤدي عمله كنقيب في جيش الجنوب، وهو يرمي من وراء ذلك إلى تسخيرهم لتنفيذ مآربه الشريرة..

وبعد أن انتهى قائد الحرس من التلاوة وجه الملك الكلام إلى حوتب قائلاً:

– ما رأيك في هذه الاتهامات؟ وما جوابك عليها؟

– ومن هم الذين اتهموني؟

وقطب الملك جبينه مرة أخرى وقال في غضب:

– أن هذا لا يعنيك في شيء، وقد سمعت الاتهامات فهل لديك ما تدفع به التهمة؟؟

– لا شيء يا مولاي إلا أنه كذب صراح، اختلقه علي أعدائي، أن جلالتكم تعلمون إخلاصي في أداء واجباتي، وأنني أحتمي برأيكم واثقاً من شرفكم.

وبدأ على الملك لمدة قصيرة أنه محرج، ولكن الغضب عاوده مرة أخرى فقال:

– الإعدام جزاء خطيئتك.. اذهبوا به...

وحدثت حركة في البهو فالتف الحراس بحوتب، يريدون تنفيذ أمر الملك، وأدار المحارب الشاب نظرة سريعة حول البهو، فقد كان في نضارة العمر، والحياة لا تزال جميلة محببة، ولكنه لم يجد على وجه من الوجوه المحيطة به نظرة تشجيع واحدة، وغلب عليه اليأس فاستدار في صمت ومرارة إلى الرجال الموكلين به، وقد ارتسمت على شفتيه بسمة ذاهلة، وأسلم إليهم قياده ليسيروا به إلى مصيره المحتوم..

– وهل من دواعي شرفه أو نبله، أن يبعث بخادم مخلص، ليموت على هذا النحو؟

واكتسحت البهو عاصفة من الدهشة كما تهب الريح فجأة، فلم يحدث من قبل أن شخصاً نقش الملك في رأيه بصراحة، حتى أن الملك نفسه قد أخذ بهذه المفاجأة، فلم يستطع الكلام، وبعد فترة طويلة أفاق من ذهوله ودهشته، وعاودته القدرة على الكلام فقال:

– إنك تجترئ كثيراً على العطف الذي أوليناك، ألست غريباً في ديارنا؟ إن اندفاعك على هذا النحو سيؤدي بك إلى نفس المصير الذي صار إليه من تدافع عنه؟ فقف جانباً ولا تتدخل فيما لا يعنيك أكثر من ذلك، وإلا حدث لك ما يسوءك.

– أنا لا أطلب منك أكثر من اتباع العدالة مع الرجل، فهل أنت فاعل ذلك؟

– أتجرؤ على مخاطبتنا بهذه اللهجة؟ خذوا هذا المأفون بعيداً وإلا قتلته حيث يقف!!

صرخ الملك بهذه العبارة في غضب، واهتز الرمح الطويل في يده، ولكن أوزيريس لم يتحرك من مكانه وقال في هدوء:

– لن أبرح مكاني هذا حتى تأخذ العدالة مجراها مع رجلك حوتب..

واندفع الملك في غضب إلى الأمام والرمح مشرعة في يمينه ليطعن بها أوزيريس، ولكن أوزيريس صاح فيه:

– مكانك...

انطلقت الصيحة مجلجلة كالرعد تتجاوب التلال صداه، وكأنما شل الملك عندما بلغت أذنيه هذه الصيحة، فجمد في مكانه، وهوى الرمح من

يمينه على الأرض الجرانيتية، وحملق رجال البلاط في فزع وخوف شديدين، وكأنهم يتساءلون ماذا سيحدث بعد ذلك..؟

وكم كان أوزيريس شبيهاً بالآلهة وهو يشرف عليهم جميعاً كرجل يشرف على جمع من الأطفال وذراعاه ممدودتان، وعيناه تلتمعان كاللهب البراق الخاطف...!!

وفي بطء استرد الملك شعوره وارتمى في مقعده وهو يرتعد من الخوف، وقال أوزيريس في صوت رهيب:

–لو تقدمت خطوة أخرى لكنت الآن في طريقك إلى الظلال السفلى أنني أملك القدرة على إفنائك، وإفناء من يحيطون بك، فأطلق صراح رجلك حوتب الذي اتهم بالباطل، وأنزل العقاب بمن أرادوا القضاء عليه، ولا تثر غضبي مرة أخرى، ولكن تذكر جيداً، واخش كثيراً..

وقبل أن تعاود الجمع المذهول قدرته على الحديث والحركة، كان الإله قد ذهب..

– ٥ –

ومرض الملك على أثر ما حدث، وانتقل إلى الظلال السفلي، ولحق بآبائه وأسلافه، ولم يترك من يخلفه على عرش البلاد، وكان على النبلاء والحكماء أن يتخيروا واحداً منهم ليحكم البلاد، بدلاً من الملك الراحل، فأجمعوا أمرهم على تولية أوزيريس، ولكن أنى له أن يتقبل التاج وما تلك برسالته؟ ومر على مصر دهر طويل وهي بلا ملك حتى أصبح أهلها كالأغنام الضالة لا تجد من يرعاها، وعندئذ نزل أوزيريس على رغبتهم، وقبل الولاية عليهم.

وانقضت أعوام وتلتها أعوام، وأوزيريس وزوجته إيزيس يحكمان البلاد في أمن وسلام، وقد استمر أوزيريس يعلم الناس فنون الحياة، شأنه معهم منذ حل بأرضهم لأول مرة، وامتد حكمه خارج حدود مصر، فأخضع الناس لا بقوة السلاح ولكن بالكلمات الطيبة وبتلقينهم فنون الزراعة ومطالب الحياة السلمية التي لم يتعلموها من قبل، وغالباً ما كان تغيبه في أسفاره يستمر شهوراً طوالاً، فكانت إيزيس تحل محله في حكم البلاد.

وذات صباح طرق باب القصر في طيبة رجل غريب المنظر، تصحبه شرذمة من الرجال المسلحين، وكان الرجل قوياً فارع الطول، ولكن وجهه كان شديد القبح، بل كان أقبح وجه شاهده حارس الباب طول حياته، كان مسخاً هائل الخلقة، وكان ذراعاه الطويلان يتأرجحان في تراخ على

جانبيه كذراعي الغوريلا، ورأسه الضخم قد استقر على عنق قصيرة مكتنزة كعنق الثور، وكان حاجباه كثيفين أسودين كزوج من الخنافس، وأنفه ضخماً مفرطحاً، ومما زاد في بشاعة وجهه وخلقته يوحيان بالشر الكامن في داخله، حتى أن حارس البوابة الشجاع قد داخله الخوف فالتصق بالبوابة وسأله:

– من أنت..؟ وماذا تريد من هنا..؟

– هل هذا هو قصر أوزيريس..؟

– إنه هو... فماذا تريد منه..؟

– اذهب فأخبره أن أخاه ست واقف بالباب، وأنه يهديه أطيب التحيات.

– أنت...؟ أخوه...؟

نطق الحارس بتلك العبارة في عجب وأطلق ضحكة مدوية؛ مستحيل أن يكون ذلك المسخ أخاً لمليكهم الشبيه بالآلهة، واستشاط المارد غضباً وزمجر:

– نعم أخوه أيها الغبي.. أسرع برسالتي وإلا حطمت هذه الأبواب على رأسك الفارغ، ثم التقطتك على سن رمحي هذا...

وكأنما هم ست بتنفيذ وعيده، فمد يده الضخمة التي يكسوها شعر كثيف أسود، وأمسك بقضبان البوابة وهزها هزاً عنيفاً كأنما يريد اقتلاعها من موضعها، وعندئذ تراءى للحارس أنه من المستحسن أن يحترمه فقال له:

– سأرسل رجلاً برسالتك...

واستدار إلى واحد من رفاقه وأمره بأن يحمل هذا النبأ إلى القصر، وكم دهش الحارس حينما عاد الرجل يحمل الإذن للغريب وزملائه أن يمثلوا بين يدي الملك..

ووقف أوزيريس في أعلى الدرج المؤدي إلى المدخل ينتظر أخاه، وقد رحب بقدومه إلى المدينة ورجاه أن يقيم معه في القصر، فقد كان جناح جديد على وشك أن يتم، ولكن أكثر من واحد من الواقفين حولهما لاحظ أن تحية أوزيريس لأخيه كانت تفتقر إلى كثير من حرارتها المألوفة، ولاحظوا أيضاً تلك البسمات الخبيثة التي ارتسمت على وجه ست.

ومنذ تلك اللحظة ذهب الأمن والسعادة اللذان صبغا حكم أوزيريس، وشاعت في المدينة وفي الحقول على السواء روح من البؤس والشقاء،لا يدري أحد كيف جاءت، وأسلم الناس أنفسهم للعراك والشجار دون ما سبب ظاهر، وكانوا جميعاً يتمنون لو عادت تلك الأيام الطيبة التي سبقت مجيء ست ورفاقه إلى طيبة الوداعة.

وكان أوزيريس يعلم أخلاق أخيه حق العلم، فهو لا يثق فيه حتى يقاسمه أعباء الحكم، ولذلك لم يساهم ست بنصيب في حكم مصر، وإنما كان همه مقصوراً على الصخب والعربدة مع رفاقه، في الجناح الخاص بهم، أو الخروج للصيد في رحلة قد تستغرق بضعة شهور، يعيشها أهل طيبة في أمن وسرور، ومن الإنصاف لأهل طيبة أن نقول أن معظمهم كان يعتقد في قرارة نفسه أن ست الشرير يأتمر بأمر بأخيه، وأن تظاهره بالمودة ليس إلا قناعاً يخفي وراءه نواياه الأثيمة..

وكانت إيزيس خلال رحلات أوزيريس وأسفاره تحرص على منع ست من ارتكاب أعماله الشريرة، فكانت ترصد له خادماً مخلصاً يراقبه، ويخبرها بكل تصرفاته وأعماله. وهكذا مرت السنون وإيزيس وأوزيريس يجاهدان لتحسين حال شعبهما، ولكن ست الشرير كان واقفاً لهما بالمرصاد، ينتظر فرصة تواتيه ليسيطر على هذه البلاد، ويخضعها لسلطانه البغيض، وكان حقده على أخيه الطيب وأخته الجميلة يشتد ويأكل قلبه أكلاً.

-٦-

انقضت بضعة أيام وست يلازم غرفته الخاصة لا يبرحها بحجة الانفراد بنفسه، ولم يتنازل عن حجته هذه حتى مع أخلص أصدقائه وأقرب المقربين إليه، أما رجاله هؤلاء فكانوا ينفقون الوقت في حياة شريرة، ويثيرون القلاقل والاضطرابات، حتى اضطر قائد الحرس أن يقبض على

اثنى عشر منهم وأن يودعهم السجن، ولكن أعمالهم الشريرة لم تنقطع رغم ذلك، بل ثابروا عليها سراً.

وانطوى ست على نفسه لا يبوح لإنسان مهما كان بما يدور بخلده، وامتنع عن الطعام لا يمسه والشراب لا يقربه، وقد تعلم الخدم أن يجتنبوا غضبه الشديد، وذات يوم انفلت المارد من فراشه فجأة وهو يقول "أستطيع أن أفعلها، وسأفعلها" وعبر الحجرة في قفزتين إلى صندوق خشبي ثقيل، وأخرج منه ثوباً من النسيج الموشى، يختلف تمام الاختلاف عما ألفه المصريون، فقد كان أنعم ملمساً، وكان يشع في نور الشمس مزيجاً من الألوان أشبه بقوس قزح، وحمل المارد الثوب بين يديه وانطلق باحثاً عن أخيه الطيب أوزيريس.

وكانت الفرصة مواتية؛ فقد كان أوزيريس وحده، فسأل أخاه بإشفاق:

– كيف حالك اليوم يا ست؟ أرجو أن يكون المرض قد زايلك..

– لقد زايلني تماماً، وإني لأحمد لك هذه اللهفة الأخوية، ودليلاً على إخلاصي وامتناني سأقدم لك هدية متواضعة، ما رأيك في هذا النسيج؟

نطق ست بتلك العبارات في لهجة رقيقة مهذبة، وكأن في ثيابه رجلاً آخر، وقدم قطعة النسيج إلى الملك الذي تحسسها معجباً وقال:

– إنه لنسيج رائع حقاً، ولا مثيل له في هذه البلاد.

– إذن فهو يصلح رداءً للملك ولو تقبله أخي فسأصنع له عباءة منه، تليق بسمته الملوكية...

– أشكر لك كرمك يا أخي، ولن أكلفك عناءً بعد ذلك فاتركه لصانعي العباءات في القصر.

– إن ذلك سيفقده نصف جماله يا مولاي، فدعني آخذ المقاييس الضرورية، ويسعدني أن أوصي بصنعه من أجلك.

– لك ما تريد يا أخي إذا كانت هذه رغبتك...

ولم يخامر أوزيريس أدنى شك في نوايا أخيه الشرير، فقام واقفاً وأخذ ست يقيس طوله على النسيج من قمة رأسه إلى أسفل قدمه، فعلق أوزيريس على ذلك ضاحكاً:

– ولكن العباءة لن تغطي رأسي أيضاً.. أليس كذلك؟؟

– طبعاً.. طبعاً.. ثق من ذلك.

ولقد فاه المسخ بهذه العبارة في تأكيد مدع، وهو مستمر في قياس بقية الأطوال بالطريقة نفسها، ثم أعلن فراغه من مهمته بعد لحظات:

– سيتم صنعها في أقرب وقت، وسأمضي بها إلى صانعي الحاذق في الحال..

وانطلق ست إلى رفاقه في الجناح الخاص بهم، ودعاهم إليه في عجلة الملهوف، وبعد ساعة من الزمان كانوا يجدون في الرحيل صوب الجنوب، فوصلوا مع المساء إلى مستنقع كبير يقوم على حافته كوخ صغير

وأوقف ست رفاقه وانطلق وحده إلى الكوخ المنعزل، وتحت إبطه ذلك النسيج الزاهي، ولقد ظل في الكوخ طويلاً حتى كاد الرفاق يضجرون، ولو كان هناك أحد على مقربة من الكوخ إذن لعجب للحديث الذي يدور فيه، فالتغليف بالذهب، والحفر في الخشب، والترصيع بالجواهر، كل ذلك لا يمت بصلة إلى صنع العباءات، ولكنها كانت على أي حال مدار الحديث داخل الكوخ، ومما يدعو للعجب أن ست حينما خرج من الكوخ كان النسيج لا يزال تحت إبطه!!!

واستأنفت الجماعة رحيلها، وظل الجميع راكبين معظم الليل، حتى وصلوا بعد يومين إلى كوخ آخر منعزل، حيث ترك ست النسيج ومعه التعليمات الكافية لتفصيله، ثم استأنفت الجماعة الرحيل للمرة الثالثة، واستمر السفر سبعة عشر يوماً، وصلت الجماعة بعدها إلى عاصمة إثيوبيا.

وانطلق ست لتوه إلى القصر الملكي وطلب الإذن بالدخول، وسرعان ما سمح له بذلك، وتوجه في الحال إلى آسو، ملكة إثيوبيا السوداء، ودار بينهما الحديث التالي:

– حسناً.. هل وفقت في مهمتك؟

– لم أنته بعد، إنهم دائماً على حذر، وأخشى أن تكون إيزيس في شك من الأمر، وقد تكون على علم ببعض خططي وتدابيري.

– لم تنته بعد؟! دائماً نفس القصة تأتيني بها، أظنك كنت واثقاً من النصر في المرة السابقة!

– عزيزتي آسو، إن أحداً لا يستطيع أن يفعل أكثر مما فعلت أنا، ولكن الخطوات الأولى تعتمد على الدهاء والحيلة أكثر من القوة والبطش.

– حسناً...!

– إن لدي خطة، ومن أجل ذلك جئت إلى هنا، ونجاحها مؤكد أن استطعت أن أحول بين أوزيريس وزوجته اليقظة، إن رجالك على استعداد لمعونتي.. أليس كذلك؟

– أنا مازلت عند كلمتي...

– إذن سنرحل غداً، وفي هذه المرة سترين أنني انتصرت..

وفي صبيحة اليوم التالي بدأت رحلة العودة، وكانت قوة كبيرة من الجند تصحب ست ورفاقه الاثنين والسبعين، وفي اليوم السابع أسرع المارد ومعه ثلة من الجنود، على أن يلحق به الباقون بأقصى سرعتهم، وظلوا يصلون الليل بالنهار مجدين في الرحيل، لا يستريحون إلا ساعات قلائل

عند الظهيرة وساعات قلائل عند منتصف الليل، وعندما وصلوا إلى الكوخ الذي تركوا به النسيج وقف ست ونادى إليه الرجل:

– هل انتهيت من مهمتك؟

– كل شيء على ما يرام.. هل لسيدي أن يرى العباءة؟

– لا... إنني أعرف فيك الإتقان، فهاتها ودعني أذهب.

ومرة أخرى جدوا في الرحيل، وقطع موكب رع رحلته السماوية مرتين، حتى وصلوا إلى الكوخ الثاني على المستنقع، وكما حدث أول مرة دخل ست الكوخ بمفرده، وأغلق الكوخ عليه وعلى الصانع، وخرج بعد برهة ودعا إليه رفاقه قائلاً:

– ستتم رحلتنا بطريق النهر، فاحملوا هذا وضعوه في القارب الراسي في مدخل المستنقع.

وكان الشيء الذي أشار إليه ملفوفاً بغطاء من البردي قد صنع بمهارة فائقة، وكان يبدو كصندوق طويل، كان كالتابوت كما قال أحد الرجال لرفيقه، ولكن سيدهم لم يوضح الأمر، وكانوا يعلمون جيداً أنه لن يوضحه لهم فآثروا الصمت. ودون أن ينطقوا بكلمة حملوه إلى القارب، ودفعوا به إلى القناة الضيقة التي تؤدي إلى مجرى النهر، واندفع القارب بلطف مع التيار..

وفي الليلة التي وصل فيها القارب إلى طيبة، ثم دفع إلى درج القصر المؤدي إلى جناح ست، ونقل "الشيء" الغامض في هدوء إلى الداخل..

وفي صباح اليوم التالي انتظر ست مقدم أخيه أوزيريس حاملاً معه العباءة التي وعده بها، وحيا الأخوان بعضهما بعضاً، وقدم ست العباءة لأخيه قائلاً:

– هل يسمح مولاي بتجربتها؟

– بالتأكيد أيها الأخ... دعني أجربها الآن..

وكانت العباءة تلائمه كل الملائمة، وكانت تتدلى على كتفيه في ضوء الشمس، فتضفي على سمته الملوكية جلالاً فوق جلال، فنظر إليها معجباً وقال:

– إنها لهدية ملكية حقاً، وإني لأشكرك عليها، ولا أدري كيف أرد لك الجميل؟

– يكفيني أن تشرف جناحي هذا المساء مرتدياً هذه العباءة، وأن تشاركنا حفاوتنا بك، إن مائدتي نادراً ما تحظى بتشريفك، وإن هذه الزيارة لتعد أحسن جزاء لي على ما كلفتني هذه العباءة من جهد بسيط..

وكان أوزيريس لا يرتاح إلى مآدب أخيه؛ لأنه يعلم أن رفاقه يسرفون في الشراب والضجة، وكان يكره ذلك وينفر منه نفوراً شديداً، وعلى أي

حال فإنه لم يرفض في هذه المرة، "فما ذنب أخيه وقد ركبت فيه هذه الغرائز التي تقوده في طريق العار؟" لقد كان أوزيريس يفكر بكرم..

ولما انصرف ست بحث أوزيريس عن إيزيس وأراها الهدية الجميلة التي تلقاها، وأخبرها أيضاً بوعده لأخيه أن يحضر مأدبته هذا المساء، فنظرت إليه إيزيس في جزع وقالت:

– ولكنك قلت إنك لن تذهب إلى هناك ثانية؟

– بعد هذا العمل الخير كيف أضن بهذا العطف الصغير؟

– إنها خديعة ست، وإن وراءها لشراً لست تدركه..

– ألست تظلمينه يا إيزيس.. إنه لم ينل من العطف ما نلناه..

– إنني أرثى له ولكنني لا أظلمه، إن جسده المختل التكوين صورة لعقله المختل، وأنه ليضمر لك الشر، فأتوسل إليك ألا تذهب إليه هذا المساء..

نطقت إيزيس بالعبارة الأخيرة وعيناها مشرقتان بالدموع، وقد كان أوزيريس وإيزيس إلهين حقاً، إلا أنهما عاشا طويلاً بين الناس وتشربا بأفكارهم، بأحزانهم وأفراحهم، وآمالهم ومخاوفهم حتى أصبحا أنصاف بشر، يتأثران وينفعلان كالناس سواء بسواء.

وفي ذلك اليوم ألح على إيزيس قلبها البشري بصوت مرتفع، وفي حزن مرير، أن تحذر زوجها ما دامت تتعلق به وتقف عليه عواطفها، وقال أوزيريس وهو يعانقها بشغف "إن ست لن يستطيع أن يلحق به شراً ما دام في قصره، ووعدها بالعودة قبل أن ينتصف الليل لكي يطمئن قلبها الجازع..

وكان قلب إيزيس يلح عليها طوال تلك الليلة، وكانت الأشباح الغريبة تتراقص وتتمايل أمام عينيها، وعلى حين فجأة شاعت في الجو حمرة غريبة، فذهبت إلى مخدعها واستلقت على فراشها، ولكن النوم استأبى عليها، ففي الناحية الأخرى من القصر، كانت تستطيع أن ترى الأضواء الزاهية في صالة الاحتفالات، وأن تسمع الضحكات الوحشية والضجة العالية.

وفي خلال ذلك كانت المأدبة قائمة، كانت تليق بالملوك حقاً وكان أوزيريس يتصدر المائدة، ويواجهه أخوه في الطرف الآخر، وقدم إليهم طبق بعد طبق من اللحوم النادرة والأطعمة المنتقاة، وكانت أكواب النبيذ وكيزان الجعة لا تفرغ أبداً، يسهر عليها سقاة متيقظون، وبعد انتهاء الطعام هب ست واقفاً وكان يبدو أن الشراب قد فعل فيه فعله وصاح:

– فلتشرب معي أيها الملك، وأنتم أيها الرفاق، اشربوا نخب صاحب الجلالة أوزيريس العظيم، ملك مصر الخالدة..

وزحمت الجو صيحة جذل وسرور، وشرب الجميع النخب

–إنني سمعت كثيراً بمهارة الصناع المصريين، ولكنني يا أخي خلال رحلتي الأخيرة، وقع بصري في إحدى البلاد على صندوق غريب الصنع، أستطيع وأنا واثق مما أقول أن أقرر أن لا نظير له في أي مكان، فلنلق نظرة على الصندوق يا مولاي.

وعندئذ أمر ست خدمه أن يرفعوا الغطاء عن الصندوق الغامض الذي جلبه من الجنوب وكان ملقى في نهاية البهو، وأن يحضروه أمام المدعوين في النور، وعندما رفع عنه غطاؤه المصنوع من البردي، ندت عن الجميع صيحة دهشة وسرور، فقد كان مصنوعاً من المعدن على نحو غريب، وكانت أقفاله على شكل أزهار اللوتس، وقد نقش على غطائه تاج الوجهين بالأحجار الكريمة.

وأعجب الجميع بالصندوق الجميل، وقال أوزيريس أنه لا يعرف صانعاً في مصر يستطيع أن يبدع مثله، وازداد الهرج والمرج عندما أعلن ست، وقد أثر فيه فرط الشرب أنه سيمنح الصندوق هبة، للشخص الذي يلاءم الصندوق جسده تمامًا.

وانسحب الخدم من البهو، واندفع السكارى نحو الصندوق عندما أعلن ست هبته السخية، وأخذ كل بدوره يجرب الصندوق فيجره رفاقه منه في جنون من المرح، وكل يأمل أن يكون الصندوق من نصيبه، ولكن الصندوق كان أكبر من أجسامهم جميعًا، وأخيرًا صاح ست:

–أيها الملك.. ألا تتكرم بتجربته؟؟ إنه يصلح أن يكون صندوقًا لعباءتك..

واعتذر الملك ضاحكًا من الفكرة، ولكنه لكي يدخل المسرة على الجمع القلق، المشغوف بتعرف النهاية، قام من مقعده وخطا نحو الصندوق، ولكنه لم يلحظ ذلك البريق الخائن، الذي لاح في عيني المارد، والأصابع المرتعشة من الانفعال التي امتدت في لهفة إلى الغطاء؛ وصدرت من الجميع صيحة كلها دهشة، حينما استلقى أوزيريس في الصندوق، لأن الصندوق كان يلائمه كأنه صنع أجله!.. وهو في الواقع قد صنع من أجله..

وفي اللحظة التالية، وقبل أن يستطيع النهوض ليخرج من الصندوق، أنزل ست الغطاء في وحشية وحزم الصندوق، وأغلق الأقفال، وثبت الغطاء بالمسامير، وصب رصاصًا مذابًا حول الحواف ليزيد من تأكيد القفل، وصاح ست في رفاقه:

– إلى النهر يا رفاق، ومعكم الصندوق، ولنسرع إلى الجبهة، ثم ألقوا فيه بالصندوق

ودارت به الدوامات المائية، ودفعته إلى وسط المجرى، فدفعه التيار وجرفه إلى الأمام، وفي اللحظة ذاتها انبثق لهب من الأعماق المظلمة، أنار القصر والبلدة، كما لو كان ضوء النهار يغمرهما، ووقف ست وحيدًا على الشاطئ بينما أسرع رفاقه إلى القوارب فلما انبثق ذلك اللهب صرخ في

فزع شديد، وقفز إلى أحد القوارب، وأخذ يجدف فارًا بحياته بين رفاقه المسرعين.

وأجهدت اليقظة المفزعة إيزيس فراحت في سبات عميق، لتراودها أحلام مفزعة مخيفة، جعلتها تحاول أن تظل متيقظة، وللمرة الثانية غامت عيناها بذلك الضباب الأحمر، وبينما كانت صيحة ست الجزعة، تطوي البهو لتوقظها أبصرت بطيف أوزيريس والدم يسيل على وجهه، وهو يشير بأصبعه إلى أعلى، فهبت من فراشها بقلب يكاد يصيح من الفزع، وخطت إلى حيث يقف الطيف، ولكن ذراعيها أطبقتا على الفراغ، وأخذت تصغي في فزع شديد إلى الأصوات المنبعثة من أسفل، وهي تنتظر عودة زوجها ومولاها، بعد طويل من الوقت سكن الضجيج، وتبعه صوت المجاديف تضرب الماء في شدة وعنف، فقالت لنفسها، الآن سيحضر أوزيريس...

وفي هذه اللحظة انبثق اللهب من النهر، فتضاعفت مخاوفها ألف مرة، ونظرت إيزيس إلى النهر بعينين فيهما دموع، ووقع بصرها على ست وهو يندفع إلى القارب، ويجدف بجنون على الماء قبل أن يتلاشى اللهيب، وتلاشت الأصوات حينما ابتعدت القوارب، ولفت البلدة موجة من السلام والسكينة، وإيزيس لا تزال تنتظر، ولكن الذي تنتظره لن يعود مرة أخرى، فقد ذهب إلى غير رجعة لأن ملك مصر أوزيريس قد مات، قد قضى نحبه ضحية أخيه الشرير وحسده الأثيم.

- ٧ -

كان الفجر ينشر أشعته الشاحبة على الكون الحزين، حينما أفاقت إيزيس من إغمائها الطويل، الذي راحت فيه بالأمس، وكانت أول ما أفاقت لا تذكر شيئًا، وكأنما مرت يد النسيان على عقلها، فأخذت تجهد نفسها في تذكر أحداث الأمس، وفجأة اندفعت إلى رأسها أحداث الليلة الماضية، وازدحمت في ذاكرتها، فسقطت في فراشها ذاهلة من الرعب، ونهضت بعد جهد كبير، وبدأت تعد نفسها للمستقبل، فقد أدركت أن مولاها قد مات، وأن اليد الشريرة التي دفعه به إلى هذا المصير المحزن، ستعود سريعًا لتقبض على هذا التاج، ولشد ما خشيت ما يضمره ست من نوايا السوء، ولشد ما كانت تلك المخاوف سريعة التحقق..

ولم تنقض عشرة أيام على قتل أوزيريس، حتى رابط جيش أجنبي قوي في السهل المنبسط أمام طيبة، وأقبل مع المساء ضابط رسول، وتقدم إلى أسوار القصر، وطلب رؤية الملكة، ولكن إيزيس رفضت أن تراه، وأمرت قائد الحرس أن يتسلم منه رسالته وانحنى الرسول وقال:

- إن ملك مصر يهدي أخته إيزيس تحياته المتواضعات، ويعرض عليها الزواج، فإذا تعطفت وقبلت فإنها ستظل تقاسمه عرشه وحكمه للبلاد، كما كانت من قبل، أما إذا رفضت، فإن ست يعلن الحرب على البلاط والبلدة معًا، ولن يبقى فيها حجرًا على حجر، ولن يبقي على إنسان ينقل القصة إلى الأجيال القادمة.

ونقل الحارس الرسالة إلى مولاته، فلما انتهى من كلامه قالت إيزيس:

– وماذا تقول يا حوتب؟

ولم يكن قائد الحرس إلا ذلك الضابط الشاب الذي أنقذه أوزيريس من غضب الملك السابق.

– أقول أن ذلك المغرور لو كان أمامي أيتها الملكة، وكنت حرًا أفعل ما أشاء، إذن لخلصت مصر من شره قبل أن يكمل الإنسان المائة عدًا..

– وبقية الضباط ماذا عساهم قائلين؟

– مثلما قلت أيتها الملكة. إن قواتنا الآن قليلة، لأن ذلك اللعين قد انتهز فرصة تغيب قواتنا في الشمال، ولكننا لن نسلم المدينة ما بقي فينا رجل على قيد الحياة.

– إنني أعلم أنك ستبذل ما في وسعك، ولكنني أخشى أن تكون قواتنا من القلة بحيث لا تستطيع مقاومة، فاذهب الآن واتخذ من الإجراءات ما تراه أنسب، أما عن نفسي فإنني سأغادر طيبة في الحال، يجب أن أمضي، لأبحث عن أوزيريس مولاي ومولاك..

– أبتهل إلى الآلهة أن تجديه أيتها الملكة..

نطق حوتب في ضراعة بتلك العبارة ثم انصرف، واستمر الدفاع ستة أيام، فتحت بعدها ثغرة في الأسوار وتدفق قطيع ست الأسود إلى الداخل، وأعمل هؤلاء البرابرة السود القتل والتذبيح في الرجال والنساء والأطفال، حتى سالت الدماء أنهارًا في الطرقات، وارتمى القتلى في أكوام بشرية كئيبة، ثم تقدم العدو إلى القصر؛ حيث تجمعت بقية الجيش المخلص.

ومرة أخرى أرسل ست يعرض الأمر على إيزيس، علها ترضى به زوجًا؛ وتغير رأيها؛ ولكنها لم تكترث حتى بالإجابة عليه.. أتتزوج من قاتل زوجها وأخاها؟ أترضاه ملكًا وسيدًا؟ إن مجرد التفكير في ذلك جعل جبينها الملكي يندى بالعار...

وفي اليوم التالي نجح رجاله السود، في تسلق السور الخارجي للقصر، وأدركت إيزيس أن النهاية تقترب.. وعادت إيزيس إلى مخدعها، وبعد أن أهدت بعض الهدايا إلى وصيفاتها طلبت منهن الفرار عن طريق النهر قبل فوات الأوان، وأمرت بأن تترك وحدها، وبعد أن ألقت عن جسدها وشاحها الحريري، لفت نفسها في نسيج أبيض، وتركت شعرها النحاسي ينسدل على جسدها فكان التماعه في ضوء الشمس يشبه ألسنة اللهيب. وبعد أن مددت نفسها في الفراش، وذارعاها مبسوطتان أخذت ترتل ترنيمة غريبة، تفيض بالغموض، وأخذ كل ما حولها يتغير في بطء، بينما هي مسترسلة في الترتيل، وتلاشت جدران الغرفة، وتلاشى الأثاث، وحتى الفراش الذي كانت ترقد عليه قد تلاشى... كل شيء قد غدا

منطلقًا من قيوده، لا يحده شكل من الأشكال؛ غدا خيالاً وكأنه لم يكن إلا مجرد حلم من الأحلام...

وأخذت قعقعة السلاح في الخارج تقترب وتقترب، ولكن إيزيس لم تعد تخشى شيئًا، فإنها لم تعد تمت إلى الأرض بصلة ما؛ ولم تكن عبثًا دراستها للتراتيل والتعاويذ، ولم تكن عابثة حين حفظت كلمات القوة عن رع ذي الجلال...

ودفع ست بالفتاة المخلصة التي كانت تقف على باب سيدتها جانبًا، واندفع إلى المخدع، ولكن الملكة الجميلة إيزيس لم تكن واقفة في انتظاره.. وعندما خطت قدمه عتبة الباب، رفرف طائر صغير بجناحيه، ناشرًا ريشه اللامع، الذي يشبه رقائق النحاس الأحمر، وطار على الفراش، وفي صيحة حزينة انسرب الطائر من النافذة وطار على النهر، وهكذا بدأت إيزيس بحثها عن مولاها أوزيريس الحبيب.

– ٨ –

لم تكن إيزيس حين طارت عن القصر، قد أخذت وجهة معينة للبحث عن زوجها الفقيد، ولكنها كانت خلال طيرانها تهبط إلى الأرض في صورة آدمية، تسأل من تظن عندهم العون في مهمتها، وانقضت بضعة أيام دون أن تقف للجسد الحبيب على أثر، ولكن الأمل ابتسم لها ذات يوم.

كانت هناك امرأة منحنية على الماء تملأ جرتها من النهر، حين تقدمت منها إيزيس تسألها عن الصندوق، الذي يحمله التيار، ولكنها لم تكن تعلم شيئًا، غير قصة سمعتها من زوجها الراعي، فقد فاجأ عددًا من المخلوقات الغريبة في الوادي. إذ خرج يرعى ذات صباح في البكور، كانت تلك المخلوقات غريبة حقًا فوجوهها وأجسامها آدمية، ولكن سيقانها وأقدامها كانت كسيقان الماعز، وقد نبتت على جوانب رؤوسها قرون كقرونها، ويسميها الرعاة "جنيات الأحراج" ويعتبرونها الحارسة الأمينة لقطعانهم، وسيد هذه الجنيات يدعى "بس".

واستمرت المرأة في قصتها: "وقد أقبلت إحدى الجنيات على زوجي فخاف وهمَّ بالفرار، لأنه من سوء الطالع أن يقابل الإنسان جنية بعد شروق الشمس، ولكنه لاحظ أن الشمس لم تشرق بعد، ولذلك وقف حتى أقبلت عليه..."

وسألتها إيزيس بلهفة عما قالت الجنية؛ فاستمرت المرأة في حديثها "لقد طلبت من زوجي أن يصغى لكلماتها جيدًا. ففي الليلة الماضية، بينما الجنيات يلعبن في الغاب على ضفة النهر، ظهر ضوء شاحب يطفو على الماء، ووسط ذلك الضوء كان هناك صندوق، وقد قالت الجنية أن هذا الصندوق يضم جسد ملككم وإنه لماض مع التيار، فاذكر ذلك جيدًا" وقبل أن يتمكن زوجي من الكلام انطلقت الجنية إلى رفيقاتها، وفي اللحظة التالية تلاشى الجمع، ثم قالت معقبة على القصة: "ولكن من المؤكد أن الملك ليس في الصندوق؛ فهو في طيبة"... ونظرت تلتمس التأكيد من

السيدة الجميلة، الواقفة إلى جوارها؛ فقالت إيزيس: "لقد قالت الجنية الحق؛ فإن ملككم قد لقي حتفه في قسوة، وانطلق جسده مع التيار، وهنالك من يخصه بالحب ويبحث عن جسده"...

واغرورقت العينان الحزينتان بالدموع، وانكبت القروية على وجهها فوق الرمال، وقبلت طرف وشاح إيزيس، وهمهمت في خشوع "مليكتي العظيمة، إننا نحن الذين نعيش بعيدًا عن طيبة لا نعلم شيئًا من ذلك، ألا رعتك السماء في بحثك هذا.."

وابتعدت إيزيس متتبعة مجرى النهر، فلديها الآن أنباء صحيحة واضحة، وانطلقت بأقصى سرعتها على الماء، وقرب الدلتا كانت لها وقفة؛ فالنهر هنا يتفرع إلى فرعين كبيرين، وهي حيرى لا تعلم أيهما تتبع، فلو أنها اتبعت الخطأ فإن ذلك يعني إضاعة الكثير من الوقت، وربما ضاع جسد أوزيريس إلى الأبد..

وفي هذه الحيرة وقع بصرها على جمع من الأطفال يلعبون على النهر، ولقد أحبت إيزيس الأطفال جميعًا، وخيل إليها أنها ستنسى أحزانها؛ إذا قضت معهم لحظات قصار، فعادت إلى صورتها البشرية، ودرجت على الضفة قريبًا منهم..

كان أحد الأطفال يبكي بحرقة، فتناولته إيزيس بين ذراعيها، وعبثًا حاولت حمله على الكلام والإجابة على أسئلتها، ولم يزد الطفل على أن

جعل يحملق في النهر كمن يبحث عن شيء فقد منه، وبدأت إيزيس تسأل رفاقه الصغار، وعندئذ بدأ الطفل الباكي يتكلم في براءة حزينة:

– أريد الصندوق الجميل..!!

– أي صندوق...؟

– الصندوق الجميل الذي كان يلمع في النهر.

– في النهر... أين هو..؟

وأعملت فكرها سريعًا فلا يمكن أن يكون هناك صندوقان في النهر...!؟

– هناك... بين أعواد الغاب.

– وذلك الصندوق ما شكله يا صغيري؟

– صندوق طويل جميل... وكان يلمع.. وعليه أزهار جميلة... ولقد لمسته بيدي ولكني لم أستطع إخراجه من الماء.

– ومتى كان هناك...؟

– في صباح الأمس... وقد عدت إلى الدار أبحث عن أبي حتى يخرجه لي، فلما عدنا من الدار كان الصندوق الجميل يمضي مع التيار، وقد حمله النهر بعيدًا.

– يا صغيري المسكين.. لا تحزن.. وسأحضر لك صندوقًا آخر.. تعال هنا غدًا في الصباح وستجد صندوقًا جميلاً تستطيع حمله بنفسك.

– صندوق جميل...؟

سألها الطفل بلهفة وكأنما أنساه حزنه السابق أمله في الحصول على كنز جديد.

– وهل سيكون لامعًا كالآخر؟ ومحلى بالزهور الجميلة؟

– سيكون جميلاً لامعًا كالآخر تمامًا، ولكنه أصغر منه حتى يمكنك حمله بمفردك، والآن قل لي: أي طريق سلك الصندوق في النهر؟

– على ذلك المجرى...

– شكرًا لك يا صغيري... والآن سأمضي للبحث عنه...

– هل ستحضرينه مرة أخرى من أجلي؟

– ليس هذا، فقد لا أعثر عليه، ولكن صندوقك الصغير سيكون في انتظارك هنا غدًا..

وعندما أسرع الصغير إلى النهر في الصباح الباكر، كان هناك على الرمال حيث لقي الربة، صندوق ملقى يلمع في أشعة الشمس المشرقة كالفضة، وكان الصندوق معجز الصنع، وفي فرحة امتلاكه سرعان ما نسى الصندوق الضائع، الذي بكى من أجله كثيرًا...

واستأنفت إيزيس بحثها وهي تتوقع بين ساعة وأخرى أن تجد الصندوق، ولكن النهر اتسع في الدلتا وأصبح لا يعدو مستنقعًا واسعًا ينبت فيه البردي كثيفًا متلاصقًا، وهكذا كانت مجبرة أن تتخذ حيطتها حتى لا تمر به دون أن تنبته إليه، ومرت أيام عدة دون أن تقف لذلك الصندوق على أي أثر..

وذات مساء تهاوى طائر منهوك، على سقف كوخ مهدم، على شاطئ المستنقع، وكان الإجهاد والتعب يبدوان عليه لأن رأسه كان منكسا، وكان يجذب أنفاسه في جهد، ودار الطائر بنظره فيما حواليه، وأخذ يهمهم بكلمات غير مفهومة كمن يخاطب نفسه..

ولعلك أدركت أن الطائر لم يكن إلا إيزيس وقد أنهكها طول البحث فقد سارت مع النهر في كل منعطفاته، وفتشت كل مجموعة من البردي، وبحثت خلف كل شجرة وفي ثناياها ولكن بلا جدوى..

فإنها لم تعثر على أي أثر يدل على الصندوق: ولقد وصلت في بحثها إلى مصب النهر دون أن تقف لجسد أوزيريس على أثر، فهل أخطأ بحثها الصندوق؟ أو حمله النهر فألقاه إلى البحر الرحيب الرهيب؟

لقد انقضت شهور عديدة منذ بدأت إيزيس بحثها المضني، وقد مرت بها أيام طافحة باليأس المرير...

وقالت لنفسها "سأقضي الليل في هذا الكوخ، وقد يشهد الغد نهاية المطاف"

وكانت تعودت أن تطمئن نفسها بهذا الأمل كلما ألح عليها اليأس، وجاء الغد ومضى، ولكنه لم يشهد نهاية المطاف...

وأوشكت إيزيس أن تدع سقف الكوخ وتهبط إلى الأرض حين سمعت نغمًا ينبعث من خميلة من أشجار الحور، وتبعت ذلك النغم ضحكات رنانة، وفي اللحظة التالية كانت تحلق فوق الأشجار في اتجاه مصدر الصوت، وحلقت في الجو لترى المنظر الغريب في أسفل!!

فهناك كانت ربوة مكللة بالورود البرية والياسمين، تناثر عليها القرنفل الوحشي والسوسن، وعلى جذع شجرة أسقطتها الأعاصير جلس رجل يحيط به جمع من المخلوقات الصغيرة وقد أخذ أفراده في ضروب من الأحاديث المرحة، والضحك الرنان، وهم يصفقون طربًا، وكان الرجل ممسكًا بيديه مزمارًا من أعواد الغاب وقد ربطت أجزاؤه إلى بعضها البعض بإحكام ومهارة، ولم يدنه الرجل من شفتيه حتى انبعثت منه أنغام كلها طرب، وانتشر الجمع الصغير حوله وأخذ يرقص رقصة جميلة، واستطاعت إيزيس عندئذ أن ترى الرجل الجالس، فلم يكن في الحقيقة رجلاً، بل كانت ساقاه وقدماه كالماعز، وكان له قرنان!

لقد عرفته إذن، إنه "بس" أقدر الموسيقيين جميعًا، كان "بس" منهمكًا في مزماره حتى يرقص صديقاته من جنيات الأحراج، وبينما تلك النغمات السواحر تنبعث، أخذت الجنيات في تقدم وتقهقر، في خطوات وئيدة متسقة أول الأمر، تطورت فيما بعد إلى لفات ودورات بطيئة نوعًا، ثم أسرعت الدورات مع النغمات في عنف ووحشية، وأسرعت الأقدام الصغيرة في الدوران حتى أصبحت الراقصات كتلة من الألوان، تدور وتدور بلا وعي، وانتهى العزف بنغمة حادة، وأخذت الكتلة الملونة تعود إلى شكلها الأول، والتف الجمع ثانية حول "بس" رب الموسيقى في سعادة ومرح، وضج الجمع وصخب طالبًا من "بس" أن ينفخ في مزماره ليرقصوا مرة أخرى.. مرة واحدة فحسب..

وقال "بس": "لن يكون ذلك الليلة، ولكن في الغد إذا شئتم، أما الآن فسأمضي إلى الجنيات اللواتي ينتظرن دعوتي، هيا إلى دوركم يا رفاق، وسأوقع لكم لحنًا وأنتم تنصرفون" وتناول مزماره وأخذ ينفخ فيه بينما السرب المرح يطفر بعيدًا، ويغني أغنية مرحة.

وأوشك نصف الآدمي أن يقوم عن الشجرة الملقاة حينما فوجئ بوجه آخر أمامه، ولم يكن وجه جنية من جنياته هذه المرة، وإنما كان وجهًا بشريًا جميلاً!!

– هل أنت "بس"؟

– إنه أنا... أيتها الجميلة.

– إنك أبصرت بصندوق غريب يطفو على النهر.. فهل لك أن تدلني أين راح؟

– الصندوق الذي يحوي جسد أوزيريس؟ نعم. لقد رأيته.. لن تجديه هنا، لقد ذهب.. لقد ذهب..!!

– ذهب..؟! أتقول أنه ذهب..!؟ هل قدر لي ألا أرى سيدي مرة أخرى...؟؟

صرخت إيزيس بتلك العبارة وقد حوت صرختها تلك كل الإعياء والحزن ولوعة القلب التي في العالم، لقد كانت صرخة بأس وجزع.

– لا تبتئسي... فقد تستطيعين اللحاق به، وإن قوتك يا إيزيس لكبيرة.. أنصتي.. إن الجنيات يغنين من أجلك وإن علمهن ليتسع حتى يشمل البحار.

وبينما "بس" يتابع حديثه ذاك، حمل نسيم المساء الهادئ، أغنية تتردد لطيفة حلوة، ولكن الحزن والأسى والرثاء كانت تفيض منها جميعًا، وكانت الأصوات تخفت وتعلو بينما يحملها النسيم عبر الخميلة، من تلك الجوقة الخفية، وأخذت إيزيس تصغي في انتباه حالم؛ وكأنما كان قلبها يتشرب كل كلمة من كلمات الأغنية:

أيتها السيدة الجميلة.. انظري..!

إن من تبحثين عنه.. ليس هنا..!!

ليس على مياه النيل الداكنة التي ترينها..!

فإذا كانت بك رغبة في العثور عليه.. فاذهبي بعيدًا..

واتركي وراءك تلك المستنقعات الحزينة..

وابحثي في قلب شجرة الحور..

وستجدينه هناك.. ملفوفًا بإحكام في أغصانها..

هناك يرقد ضحية ست مختفيًا عن الأنظار!!

ضحية القسوة التي يندى لها الجبين..

هناك تثوي جريمة المارد متشحة بالسواد..

وستخرج إلى النور بقوة حبك..!

لا تهني... ولا تضعفي... إن واجبك لم ينته بعد..

وإن حبك العظيم سينتصر بقوته..

وعندئذ سيعود إله الكون ظافرًا ليحكم من جديد..

ويتلاشى الباطل... ويبقى الحق..

ويتحول الظلام الدامس إلى نور مبين..!!

وانقطع الغناء، ولكن إيزيس مازالت تصغي في انتباه حالم، فإن ذلك الغناء قد مس شعورها مسًا عنيفًا، ودار بفكرها أنها موشكة أن تعلم الكثير عن مولاها الفقيد، وقالت مخاطبة "بس":

– ما هذا؟ لقد سمعت عن شجرة الحور، وقسوة ست، وهزيمة الباطل وانتصار الحق، فهل لديك إيضاح أكثر من ذلك؟

– اصغي إلي أيتها الربة، وسأخبرك بما أعلم، منذ أيام اندفع الصندوق الذي عنه تبحثين إلى البحر وتقاذفته الأمواج حتى استقر في بيبلوس، بين أغصان شجرة من أشجار الحور!!

– وهل سأجده هناك؟

ألقت إيزيس هذا السؤال بلهفة وجزع..!

– ليس العثور عليه بالسهولة التي تظنين؛ فشجرة الحور قد نمت بسرعة، وطوت الصندوق في جوفها، فلم تعد رؤيته ممكنة، وقد مر ملك بيبلوس بهذه الشجرة خلال الصيد، فلاحظ ضخامة جذعها؛ فعزم على أخذها.

– حسنًا.. استمر في قصتك.

– وفي اليوم التالي كان رجال بيبلوس الأشداء، يقطعون الشجرة، ويحملونها على عربة إلى قصر الملك، حيث استخدمت كدعامة تحمل سقف البهو.

– ولا يزال الصندوق بداخلها؟

– نعم ولا يعلم وجوده إلا أنا وإخواني، ولن نتكلم، أما الشجرة فلا تزال هناك ترفع سقف البهو.

– لك شكر إيزيس... هل هناك ما أستطيع عمله من أجلك لأبرهن لك على اعتراف بجميلك؟

– إن قوة إيزيس لكبيرة، وأنا مشوه الخلقة، ليس لي وقار الإنسان ولا رشاقة الحيوان، والإنسان والحيوان كلاهما يضحكان مني ويسخران من نقص خلقتي، وإنني لأبتهل إليك أن تهبني عطفًا يجعلهما ينظران إلي بعين التقدير بعد ذلك.

– لقد أجيب سؤالك يا "بس" ولن يلفظ الناس اسمك بعد اليوم إلا مصحوبًا باحترامهم لك، وتقديرهم لموسيقاك.

ولا يزال آلاف الناس إلى يومنا هذا لا يستطيعون أن يصفوا لك "بس" ولكنهم يعلمون أنه إله من آلهة العصور الغابرة كان يوقع موسيقاه الإلهية على ناي من الغاب...

– ٩ –

كانت أسوار قصر الملك مليكاندر تلمع تحت أشعة الشمس في الصباح، وكان الهواء راكدًا، لا حياة فيه، وحتى المياه المنبثقة من النافورة الرخامية، كانت كأنها ترتفع وتتساقط في كسل وبلادة، وكانت أشجار السنط كأنها تدعو السابلة ليتفيأوا ظلها، وكأنما تلك السيدة التي أنهكها السفر الطويل قد استجابت لهذا الدعاء فوقفت لتستريح في ظلها الوارف...

وتوقف كثير من المارة يسألون السيدة ذات العيون الحزينة عن أمرها، ولكنهم جميعًا لم يجدوا منها إلا الصمت الطويل، ولم تقبل على ما حولها، حتى أقبلت وصيفات الملكة..

وتقدمت الوصيفات يستطلعن أمر السيدة الغريبة، ولم يكن سواها يجسر على الدنو من هذه الأشجار، إلا إذا كان ذا صلة بالقصر، وتقدمت منهم إحداهن، وكانت جميلة مشرقة، لا تتعدى الرابعة عشرة من عمرها وسألتها:

– هل تبحثين عن أحد هنا يا سيدتي؟

- نعم.. إن سيد الناس هنا... وقد جئت ألتمسه..

- إن الملك في رحلة للصيد خارج بليبوس.

قالت الفتاة ذلك وقد ظنت أن السيدة الغريبة تبحث عن سيدها الملك.

- أنا لا أتكلم عن ملككم فإن الغريب يبحث عن غريب آخر استقر بينكم منذ زمان طويل، ولكن أحدًا لا يعرف ذلك، رغم أن اسمه يتردد على كل لسان...

وعندما لاحظت نظرة الحيرة والتساؤل على وجه الفتاة تابعت كلامها:

- تعالي هنا وحدثيني عن ذلك المكان...

وكانت الفتاة كأي أنثى على استعداد لأن تتحدث وتثرثر، وبعد لحظات قصار كانت تتحدث إلى السيدة الغريبة وكأنها تعرفها منذ فجر حياتها، وعندما جلست الفتاة أمامها أخذت إيزيس - لأنها كانت نفس السيدة الغريبة - تعبث في شعرها وأخذت تضفره في ضفيرة كبيرة كادت أن تصل إلى الأرض، وسألتها الفتاة:

- من تكونين يا سيدتي...؟

– أنا راعية شعبي وطبيبته...

ولاح على الصبية مرة أخرى أنها شدهت، ولكنها سألتها:

– وهل يمكن العناية بشخص مريض...؟

– إذا شئت ذلك...

وظلت الفتاة مسترسلة في التفكير، وعلى حين فجأة دق ناقوس كبير، فهبت واقفة وقالت:

– يجب أن أنصرف الآن.. هل ستقيمين هنا أم ستواصلين الرحيل..؟؟

– عندما تسلم الشجرة الإله الراقد في جوفها سأرحل...!!

ونظرت إليها الفتاة في رثاء وإشفاق ولكن الكلمات كانت لا تفيد في هذا المقام، وأنقذها من هذا الموقف صوت الناقوس، يدعوها للمرة الثانية، فودعتها في عجلة وانصرفت.

وكانت الفتيات الباقيات قد انصرفن، فلما وصلت الفتاة إلى الجناح الملكي كانت اثنتان من الجواري على وشك العودة للبحث عنها، فقالتا لها أن الملكة تريد التحدث إليها.

وقالت لها الملكة عندما رأتها: "لقد تأخرت يا مليتا؛ فهل كنت تلعبين وحدك، فلم ترجعي مع أخواتك؟ أو هي..؟" ووقع بصرها على الضفيرة التي ضفرتها إيزيس في شعر الفتاة فأضافت "هل اهتمامك بزينتك هو الذي استغرق معك كل هذا الوقت؟.. من فعل ذلك يا طفلتي؟"

ولم تنتظر إجابة على ذلك بل قالت "إنك لا تستطيعين بمفردك أن تضفري شعرك هكذا..."

وقالت مليتا جزعة "إن سيدة عند أشجار السنط هي التي ضفرت شعري، وأنا أتحدث إليها، لقد قالت أنها طبيبة، وإنني لأتساءل إذا كان في إمكانها تمريض الأمير يا مولاتي؟"

وصاحت الملكة ساخرة "طبيبة..؟ فعلا... أتظنين أن دعية متجولة تستطيع أن تنجح حيث أخفق أطباء البلاط جميعًا؟ ولكن بأي شيء عطرت لك شعرك؟ إن عبير الورود البرية والبنفسج يفوح من الضفيرة، وتلك الزهور لا تحتمل شمس بيلبوس المحرقة، من تكون تلك المرأة؟" وأجابت الفتاة "لقد قالت أنها راعية شعبها، وحين سألتها إن كانت ستقيم هنا قالت: (عندما تسلم الشجرة الإله الراقد في جوفها سأرحل مرة أخرى) أما ما تعنيه بهذا القول فلم أستطع فهمه يا مولاتي، وربما تفهمين ما تقصده يا صاحبة الجلالة".

ومن الواضح أن عشتروت ملكة بيبلوس لم تفهم أكثر مما فهمت الفتاة، ولكنها في كبرياء الملكات لم تصرح بذلك، واستغرقت لحظة في

تفكير عميق، ثم قالت للفتاة "ابحثي عن السيدة الغريبة وأحضريها إلى هنا".

وأسرعت مليتا فرحة إلى حيث تجلس السيدة الغريبة في ظل أشجار السنط، فوجدتها تحدق في مياه البحيرة في ذهول، كما وجدتها أول مرة، فقالت لها أن الملكة ترغب في رؤيتك، فهل تذهبين إليها؟ وكأن الفتاة أدركت أن السيدة الغريبة من طينة البشر فأحست برهبة لم تدرك مداها فلم تقل لها أن الملكة أمرت بحضورها، وكأنها أحست أن هذه السيدة لن ترضخ حتى لأوامر الملكة.

وقالت السيدة الغريبة بعد فترة قصيرة "سأذهب إليها فدليني على الطريق" وسارتا معًا عبر الممشى الأخضر حتى المدخل الضخم الذي يؤدي إلى القصر، وسرت بجسد إيزيس قشعريرة عندما خطت عبر الدهليز الطويل، لأنها أحست أن الكنز أصبح في متناول يديها.

وفي القصر وقع بصرها على دعامة فخمة تحمل السقف، لقد كانت جذع الشجرة الذي تحدثت عنه الجنيات، كانت مستقيمة وثابتة، ولكن الأغرب من ذلك تلك الأشكال البارزة على اللحاء، فقد كانت تبدو عليه وجوه أناس وحيوانات، داخل إطار من أزهار اللوتس، ويعلو ذلك جميعًا من الناحية التي تواجه الباب، تاج الشمال والجنوب، ولما اقتربت إيزيس من الدعامة، تبين لها أنها تنمو نموا طبيعيا في اللحاء؛ ولا

شك أن تلك الغرابة وهذا الجمال هما اللذان أغريا الملك مليكاندر ودفعاه إلى قطعها وحملها إلى قصره.

ووقفت إيزيس لحظة دون حراك، وشحب لونها، وارتعدت أطرافها، ولكنها تمالكت نفسها أخيرًا فهنا يرقد سيدها الحبيب، وعما قريب ستنال جزاء بحثها ثم تستريح، ولما استدارت مليتا لترى سبب تلبثها، تمالكت إيزيس نفسها وسارت إلى الأمام تتبع الفتاة؛ خلال تيه من الحجرات.

وكانت ثرثرة الوصيفات والجواري تستحيل إلى همس خفيض حين تمر بهن إيزيس.. هل كان ذلك الوجه الملكي مجرد وجه امرأة عادية؟ وهل يمكن أن تكون جوابة تذرع الأرض؟ ولكن إيزيس لم تلق بالاً إليهن، وبعينين تتطلعان إلى السعادة المقبلة، التي انبثقت مشرقة أمام ناظريها، تقدمت إلى مخدع الملكة.

ونظرت إليها عشتروت في دهشة ورهبة معًا، فلم تكن السيدة الغريبة من النوع الذي كانت تنتظره، وماتت على شفتيها ألفاظ الكبرياء التي كانت قد أعدتها للترحيب بها، وسقطت حزمة من أشعة الشمس فجأة على شعر إيزيس الأحمر، فاستحال إلى تاج من لهيب، وقد كان هذا المنظر، وما أيقظه من ذكريات نائية باعثًا لها على إدراك بعض الحقيقة، ولذلك فإنها حينما تكلمت كان صوتها رقيقًا، وفيه الكثير من الشفقة وقالت:

– إن هذه الفتاة أنبأتني أنك طبيبة، فهل تستطيعين أن تمرضي ولدي وتعالجيه؟

– أمرضه..؟ نعم، أما أن أعالجه أو لا.. فهذا يتوقف عليك أنت..

– أحضري الأمير إلى هنا.

أصدرت الملكة هذا الأمر إلى مليتا، وسألت إيزيس:

– من تكونين؟ ومن أين أقبلت؟ لقد أتيت معك بأريج أزهار الربيع الذي أعهده في جبال وطني، فهل أنت من تلك الأرض؟

– لقد جئت من أرض بعيدة بأقصى العالم، وقد عشت مع زوجي سعيدين زمنًا طويلاً، ثم قضي عليه في قسوة، وأبعدت أنا عن تلك الأرض..

– يا لك من تعسة يا سيدتي.. لقد ذقت أنا أيضًا مرارة الحزن..!

ودخلت مليتا تتبعها مربية تحمل الأمير على وسادة، وسألت عشتروت بلهفة وهي تقدم الطفل إلى إيزيس: "هل تستطيعين معرفة دائه؟ إنه يذوي، وأمهر أطبائنا لا يملك له شيئًا، أعيدي إليه الصحة والقوة ولن يرفض الملك لك طلبًا، وستصحبك دائمًا دعوات أم تحمد لك هذا الصنيع".

وجالت في مآقيها دموع حرار، وحملت إيزيس الأمير الطفل على ذراعيها دون أن تفوه بكلمة، وصدر عن الطفل أنين كأن به ألمًا، وارتسمت علامات الألم على ذلك الوجه الجميل الشاحب، وحدقت إيزيس في العينين المغمضتين وقد وضعت أناملها على حاجبيه، يا للمعجزة.. إن العيون المغمضة تتفتح، وهذه ابتسامة باهتة ترتسم على الشفتين البيضاوين..

وخلعت إيزيس عن الطفل برنسه الحريري، وأخذت تمرر يدها الرطبة على الجسد الهزيل، وأخيرًا وضعت إصبعها في فمه فأخذ يرضعه بلهفة لدقائق عدة ثم أعادته لأمه قائلة لها ببساطة: "سيصبح ابنك أحسن حالاً".

ولم تمض أيام ثلاثة حتى كان الطفل يجري هنا وهناك، في مرح الطفولة وبراءتها وعدم اكتراثها بشيء..!

وجعلت الملكة إيزيس على رأس مربيات القصر...

- ١٠ -

وأخذ الأمير ينمو ويزداد رشاقة يومًا بعد يوم، وكان ذكاؤه وقوة جسمه موضع إعجاب الجميع، لقد أنقذته إيزيس حيث أخفق الأطباء في إنقاذه، وكان يبدو أن السيدة قادرة على تنمية مداركه، كما نمت جسمه، وكان الأمير الطفل يقضي النهار برفقة المربيات الأخريات، ولكنه كان

يقضي الليل برفقة إيزيس، فكان ينام في مخدعها حيث لا يسمح لأحد بمقابلته.

وسارت الأمور على هذا المنوال بضعة أيام، بدأت بعدها الشائعات تتوالى عما يحدث في ظلمة الليل من أفعال غريبة في غرفة القادمة الجديدة، فالأصوات الغريبة كانت تنبعث من خلف الأبواب الثقيلة، وكانت تشبه ضحكات طفل تمتزج بصوت فرقعة اللهيب، وكانت الأضواء البراقة تنبعث من تلك الغرفة حين ينبغي أن يكون الجميع نيامًا، وكان إلى جانب ذلك كله صوت أنثوي رقيق ينبعث صافيًا جميلاً كرنين أجراس المساء، يحمله هواء الليل الساكن من بعيد، وكانت الأضواء تتلاشى، والموسيقى تتوقف، عندما تطرق الباب مربية الأمير السابقة، وكانت عندما تدخل الغرفة تجد الطفل والمربية غارقين في سبات عميق..

وهكذا سخر القدر منها مرتين، ولم تجد بدًا من إخبار الملكة بما يحدث واندفعت تروي قصة طويلة، وهي في أثناء ذلك بين الخوف والغضب: "لست الوحيدة التي ترى تلك الأشياء وتسمعها يا مليكتي! إن وصيفاتك جميعًا يؤكدن ما رأيته، وناي أيضًا، حارس الردهة، يقول أنه منذ وصلت السيدة الغريبة، وهو يرى عندما ينتصف الليل، طائرًا ينبعث من غرفتها يحوم حول الدعامة المنقوشة التي في البهو، وهو يرسل في أثناء تحويمه صرخات حزينة، وقد حاول ناي ذات مرة أن يزجره فوجد نفسه لا يستطيع حراكًا، بينما أخذ الطائر ينظر إليه بعينين حزينتين، ويقول ناي أن عيني الطائر هما نفس عيني المرأة الغريبة.

وقالت الملكة "أقاصيص لا تدل إلا على الغباء، وسأتأكد بنفسي من كذب هذا الكلام"، وفي الليلة ذاتها أخفت الملكة نفسها في مخدع إيزيس، وقد حدثتها نفسها بأن ما تعمله لا يليق بها كملكة وأنبها ضميرها لأنها تتجسس على المرأة التي أسدت إليه الكثير، فضلاً عن أنها ضيفتها، ولكن قصة المربية أقلقتها، وألحت عليها عاطفة الأمومة في أن تحمي طفلها من كل شر محتمل، وأبصرت إيزيس تدخل غرفتها فتقبل الطفل النائم ثم تعود إلى فراشها.

ومرت الساعات في بطء، ولم يحدث شيء ما، وبدأت الملكة تفكر في أنها كانت من الغباء بحيث أصغت لما يرويه خدمها من أقاصيص وكانت في مخبئها في وضع غير مريح على الإطلاق، ولن تملك فرصة الخروج من هذا المخبأ قبل حلول الصباح...

وأخذت الريح تئن في الخارج، ثم ترتفع تلك الأنات فتصل أحيانًا إلى ما يشبه العويل، وكان ذلك نذير عاصفة مقبلة، ولقد كان من العقل أن تذهب عشتروت في هدوء إلى فراشها بدلاً من الاستماع إلى أقاصيص العجائز، وبدلاً من أن تفقد منزلتها في نظر حاشيتها، وفضلاً عن ذلك فقد خاطرت باتخاذ خطة العداء نحو المرأة التي تدين لها بالفضل العميق.

وعلى حين فجأة اهتز كل عصب في جسدها القلق؛ وتوقعت حدوث أمور جليلة، فقد انبعث اللهب من كل مشعل في الغرفة ونظرت عشتروت من مخبئها، فرأت إيزيس واقفة وسط الغرفة وقد حملت الطفل

على ذراعيها، وكان شعرها الطويل مرسلاً ومنسدلاً على جسدها وعلى الطفل؛ ولكن ما هذا؟! إن اللهب لينبعث من أناملها ومن كل شعرة في جسدها، لقد كان وجهها مضيئًا كقرص الشمس في الظهيرة، وكانت عيناها تلتمعان كالنجوم في السماء..

وكان الطفل يضحك ويصيح مرحًا، وكان اللهب يحدث فرقعة وأزيزًا رهيبين، وإيزيس تغسل الطفل العاري في ألسنته الحمراء، ومن بين هذه الأصوات ارتفع صوت إيزيس وهي ترتل أنشودة بلسان لم تفهمه الملكة...

وظلت الملكة صامتة في جزع مدة قصيرة، ثم صرخت صرخة رعب، واندفعت من مخبئها ولكنها قبل أن تخطو خطوات ثلاثًا، كان الظلام قد شمل الحجرة من جديد، وخبت المشاعل إلا مشعلاً صغيرًا ظل مضيئًا الليل بطوله، وظلت إيزيس واقفة وسط الحجرة والطفل نائم بين ذراعيها...

وفي غمرة الذهول من هذا التغير المفاجئ، لم تستطع عشتروت إلا التحديق في السيدة الغريبة التي استقرت عيناها بدورها على الملكة، وأخذت تفحصها وتتعمقها، وبعد وقت طويل سألتها الملكة في صوت متحشرج من الخوف "من تكونين؟" وومض البرق داخل الغرفة وثبت فوق رأس إيزيس وقتًا قصيرًا، قبل أن يقطع سماء الغرفة، ويتركهما في ضوء خافت..

وقالت إيزيس: "أيتها المرأة المنكودة، إنك خفت على طفلك كما تخاف أي امرأة، ولكنك أضعت عليه الخلود بخوفك هذا، ففي هذا المساء كنت سأعبر به مرحلة الفناء، وأكرسه كأحد الآلهة ولكن اندفاعك هذا أفسد تراتيلي وتعاويذي؛ ولن أستطيع بعد الآن أن أجعله من الخالدين، فخذيه.. لن يكون الخلود من نصيبه، وستحل به الشيخوخة ويذهب به الموت كالآخرين"، وهمست الملكة بعد ذلك مرة أخرى "من تكونين؟"

وتوالت الومضات بعد ذلك، واحدة بعد أخرى من النور العبقري، فجعلت الغرفة أشد إشراقًا منها في النهار، وكانت ألسنة اللهيب تمتد وتتراقص حول الوجه الغامض، مما زاد في رعب الملكة، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فبينما الملكة تحدق في إيزيس بفزع وقد جحظت عيناها، وابيض وجهها، إذا بأشعة الضوء الحية تتجمع وتهبط على رأس إيزيس مكونة كرة من النار؛ وانبعث منها أفاع ذوات عيون براقة، تمتد رءوسها وتخرج ألسنتها، كتلك الأفاعي التي خارج مصر، واستحال شعر إيزيس النحاسي إلى أجنحة من الحمرة البراقة، والزرقة المشوبة بالذهب، وكان وجهها رقيقًا عطوفًا كما هي دائمًا، ولكن كانت تبدو عليه مسحة من النبل الهادئ، الذي لا يرى إلا على وجوه أولو...

ولقد سمرت قدما عشتروت لهذا المنظر الرهيب ووقفت مفزعة بإزائه، وفي اللحظة التالية انفجرت العاصفة وأحدثت رجات عنيفة، هزت القصر من أساسه، وأطبقت الملكة ذراعيها على طفلها وأنت أنة والهة،

حوت كل ما تكن من لوعة، وضمت الطفل إلى قلبها، وانطلقت من الغرفة لا تلوي على شيء..

- ١١ -

جلست إيزيس إلى النافذة المنخفضة تحملق في أشجار السنط، التي تمتد إلى سيف البحر، وكانت العاصفة التي هبت في الليل الماضي قد انجلت، ولكنها خلفت سحبًا متناثرة هنا وهناك إلى الشمال والغرب، وقد تجمع بعضها في كسف كبيرة قاتمة؛ وكانت الشمس تطل من فرجة بين الغيوم، وكانت أشجار السنط مغمورة في حطام العاصفة وبقاياها، وكانت الأزاهير الجميلة ملقاة في الوحل، وقد مزقتها الرياح السافيات، ولكن إيزيس لم تلق بالاً إلى ذلك كله، فإن أفكارها كانت تدور حول أشياء أهم من ذلك، ولم لا ينتهي بحثها اليوم؟ إنها تعلم أن الملك سيبعث إليها رسولاً، وهي الآن تنتظره بفارغ الصبر، وهي تفكر في الأيام السعيدة المقبلة.

ولم يكن مليكاندر كعادته؛ فقد عاد من رحلته للصيد، ليجد أمامه قصصًا خرافية تروى عن المربية الجديدة، ومما أقلق راحته أن رسالة وصلته في منتصف الليل تقول أن الملكة منطوية على نفسها في فزع شديد، وتطلب وجوده إلى جوارها، فلما وصل إلى جانب فراشها استطاعت في أول الأمر أن تتكلم بسرعة عن إيزيس والبرق، والأجنحة الذهبية والأفاعي اللامعة، وعن الربات والنار، وكثير مما لم يستطع مليكاندر أن يفهم منه شيئًا، واستطاع بعد كثير من الأسئلة أن يفهم أن المربية التي

عالجت الطفل بنجاح ليست في نظر الملكة، إلا إحدى الربات، ويجب أن تلقى التكريم اللائق بها ثم تمضي لحال سبيلها..

ولو قد طلب من مليكاندر أن يكرم أميرًا من جيرانه، إذن لهان الأمر، وإذن لاستطاع أن يقوم بذلك على أكمل وجه، فيخصص يومًا لصيد التماسيح وأفراس البحر، فضلاً عن الحفلات الرائعة الضخمة، ولكن تكريم ربة في ضيافته أمر لم يألفه من قبل..

ولكنه كان أمرًا لا مفر منه، وبعد أن ذرع الغرفة عدة مرات، قرع قطعة من المعدن معلقة على الحائط بشدة، وقال للخادم الذي لبى النداء "ادع الوصيفة مليتا..." ثم قال لنفسه "سأرى تلك السيدة الغريبة، إذا كانت ستلبي طلبي، ولعلي أستشف منها شيئًا يهديني إلى تصرف معقول"، ولما جاءت مليتا طلب منها أن تستأذن له في رؤية إيزيس، إذا لم يكن لديها مانع من لقائه..

وفي غمرة من الدهشة، ومن عدم الفهم لما يحدث في تلك الليلة من أحداث غريبة، طرقت مليتا الباب في خوف، وبعد أن أذنت لها إيزيس في الدخول، دخلت الغرفة وهي تتعثر، وتقدمت نحو النافذة حيث تجلس إيزيس، وبعد أن سكن روعها قالت في جهد: "إن الملك يود أن يعلم إذا كان في استطاعته أن يراك؟" وقالت إيزيس بهدوء "نعم... أنبئني الملك أنني سألقاه هنا"

وعندما دخل الملك الغرفة ركع ثم تناول اليد الممدودة إليه وقبلها في خشوع، وهكذا أدى ما عليه نحو الربة التي كانت ضيفته، وبدأ يقول في أناة: "إن الملكة ليست على ما يرام، فقد أرهقتها أحداث الليلة الماضية ولكنها طلبت إلي أن أشكرك على عنايتك بطفلنا الصغير، وإن لساني ليعجز عن التعبير عن امتناني لما أظهرت من عطف بتشريفك لنا، إنني لا أعلم من أنت ولكن قبل أن ترحلي، أتوسل إليك أن تقولي إذا كنت أستطيع أن أقدم لك أية خدمة."

وأجابت إيزيس، وقد أثرت فيها لهجة الملك ونبل طريقته، وبساطة كلماته: "مليكاندر إنك ستتعلم الكثير، ولكنك لن تشير إلى شيء مما تعلم، ولكي تطمئن، أقول لك أن الملكة ستكون أحسن حالاً، أما عن ولدك الأمير، فإن اسمه ومجده سيعمان في المستقبل أرض بيبلوس جميعها، وأما عن نفسي فإن ساعة رحيلي قد دنت، ولكن قبل أن أمضي أطلب منك منة لا تنسى..."

فقال الملك "اعتبري طلباتك مجابة منذ الآن" فقالت إيزيس "الدعامة الموجودة في البهو الكبير، إنني أطلبها منك"

ولم يكن الملك يتوقع ذلك الطلب، فإن الدعامة قد كلفته كثيراً لإعدادها حتى وضعت في مكانها، ولكن تردده لم يكن لهذا السبب، فليس لهذه الدعامة مثيل في العالم، والناس يأتون من بعيد ومن قريب ليشهدوا الرسوم المنقوشة على اللحاء، ولم يطل تردده فقد أعطى كلمته وانتهى

الأمر، ولو أن إيزيس طلبت قصره بما حوى فلن يرفض لها طلبًا، وأجاب "أنها سترفع من موضعها في الحال" وعقبت إيزيس على إجابته "إن قيمتها لديك في مظهرها الخارجي ولكنني أريد ما بداخلها، وهكذا قد تشبع رغباتنا كلينا"

وانقضى ذلك النهار كله، والعمال منهكون في رفع الدعامة الشجرية، وفي الصباح التالي حضرت لتسلمها بحضور الملك والملكة، ولكنهم حينما أرادوا نقل الدعامة إلى القارب الذي صنع من أجلها، طلبت منهم إيزيس أن ينتظروا، وتناولت سكينًا طويلاً، وسحبتها على الجذع، حيث هو ملقى فسقط اللحاء، وهنالك في قلب الشجرة كان أعجب ما أبدعته يد صانع، وأغرب ما وقعت عليه عين إنسان. إن صندوق ست كان هناك!!

وطغت على إيزيس موجة من الانفعال لمدة وجيزة، وغام المنظر أمام عينيها ولكنها تغلبت على ضعفها وتناولت قطعة من الكتان الأبيض النظيف ونشرتها ووضعت فيها قطع اللحاء، ثم صبت عليها الزيت العطري، وكانت في خلال ذلك تتلو كلامًا غريبًا غامضًا، ثم التفتت إلى الملك قائلة: "إن هذه القشور المقدسة قد حفظت جسد إله، فاحفظوها في مكان يليق بها، وهكذا تحتفظ بكنزك يا مليكاندر، وطالما أنت وشعبك تكرمونها، فالإله راض عنكم، وعن أرضكم، فاسمع وتذكر"...

وأقيم احتفال جليل أثناء النهار نقلت فيه الشجرة إلى معبد المدينة الكبير، وأعيدت أجزاء الشجرة إلى ما كانت عليه من قبل بأمر الملك، ثم رفعت فوق المذبح، حيث ظلت بضع مئات من السنين، موضع تكريمهم وتقديسهم لما أحاط بها من معجزات.

ورفع اثنا عشر من الحمالين الأشداء؛ ذلك الصندوق المعدني وحملوه إلى القارب يتبعه الملك والملكة، ورجال الحاشية إلى الشاطئ وقد صحبوا الربة حتى تودع أرضهم، وقد تجمع كذلك على الشاطئ جمع غفير من الناس. وكان القارب مكسوًا بنسيج وردي مذهب، وكان شراعه الكبير من الحرير الأسود، ونقل الصندوق بلطف ووضع في مكانه من القارب، بين مظاهر التقديس والتكريم، ولما تم كل ذلك دارت إيزيس نحو الملكة التي كانت ممسكة بالأمير الصغير، فتناولته بين ذراعيها، وربتت بيدها على جبهته ثم قبلته قبلة طويلة مفعمة بالعاطفة وقالت لأمه في بساطة، وهي تعيده إليها "لقد أحببته كثيرًا..." ثم خطت إلى القارب ووقف عند نهاية الصندوق، ونشر الشراع الأسود الكبير، ونزعت سلاسل المرساة، وانطلق القارب الملكي تدفعه أيد خفية، وهكذا انتهى بحث إيزيس!!

– ١٢ –

وصعد القارب على المجرى بين أعواد البردي، تظلله أغصان الصفصاف المتدلية، وأغصان اللبخ ذات الأذرع الهزيلة الكئيبة، وقد امتدت فوق المياه، وكانت إيزيس تقف في مؤخرة القارب وعيناها مثبتتان

على التابوت الراقد أمامها في ظل الشراع الأسود الحزين، وكأن الطبيعة كانت تشاركها أحزانها فتكاثفت السحب في السماء داكنة لا حياة فيها، وسكنت الحياة من حولها فلا صوت ولا حركة فقد هجرت الحياة تلك البقاع الخربة، وحلت بها الوحدة الخرساء، وزحمها الموت الرهيب...

وصل القارب الملكي مع الغروب إلى بقعة رملية من الشاطئ منحدرة إلى النهر، ورفعت إيزيس رأسها – لأول مرة منذ أبحر القارب – ونظرت إلى السماء، وبإشارة من يدها اتجه القارب إلى أجمة كثيفة من الغاب الطويل، وقفزت إيزيس على الشاطئ، وأدارت بصرها فيما حولها، فلم تر شيئًا سوى الرمال ومياه النهر الداكنة، والسماء الملبدة بالغيوم، وسوى نخلات ضاربات في الجو على مبعدة...

وعادت إيزيس إلى القارب وفحصت التابوت، إن طول مكثه في الماء قد أتلف خشبه، وجعل أربطته المعدنية تصدأ، وأعملت آلة حادة في الغطاء بحركة سريعة منفعلة، وأدخلت يد مجداف في الثغرة التي أحدثتها، وضغطت عليها فتفككت الأربطة واحدًا بعد الآخر، وتحرك الغطاء الثقيل.. كانت إيزيس تعلم يقينًا ماذا بداخل الصندوق ذلك أمر لا يحتمل الشك، ولكنها حين وقع بصرها على الوجه والجبين، وملامح أوزيريس التي لم تتغير عما عهدته قبل أن يفارقها آخر مرة، لم تستطع أن تحبس تنهدة عميقة ندت عن صدرها، ولا أن تمسك الدموع التي انحدرت على خديها، لقد انتصرت عواطف المرأة على وقار الربة...

وأخذت تحدق في وجهه طويلاً؛ وذكريات عمرها السعيد تزحم رأسها، أمن الحق أنها لن تستطيع أن تنصت إلى صوته الحبيب مرة أخرى؟ ألن تستطيع أن تنفرد به أبدًا؟ ربما يكون ذلك في بلاط طيبة، ولكن.. أبدًا.. لا. لم يحن الوقت لتقال هذه الكلمة..

وحملت الجثة في رقة إلى الشاطئ، ومددتها على الرمال البيضاء ثم خلعت بعد ذلك رداءها وأرسلت شعرها المتموج، فكساها بجلباب من الذهب الأحمر، تحت أشعة الشمس الغرابة وانحنت ثلاثًا في خشوع لإله الشمس "رع" ثم جثت على الرمال بجانب جثة الملك الميت وذراعاها ممدودتان، وقد اتجه وجهها إلى الغرب.

وخالطت نسيم المساء أغنية باكية، في رقة ذلك المكان، كانت ترتفع في لطف ثم تنخفض في لطف، ثم تنساب في عنف وعاطفة، ثم تتلاشى في حزن لا نهائي، ويتبع ذلك سكون حزين يقطعه صوت إيزيس وهي ترتل التعاويذ، والكلمات السحرية التي تعلمتها في العصور الخوالي، وأخذت عيناها تغمضان في بطء، وهي مسترسلة في الغناء، وساد السكون ذلك المنظر مرة أخرى، فلا نفس يتردد في ذلك الجسد الذي كان يفيض حياة وشبابًا، ولا عضو يختلج من أعضائه، وسكن النسيم، ولاح كأنما المياه في النهر قد توقفت عن الجريان، وتلاشى حفيف الغصون وهمس أوراق الغاب، وكأن إيزيس ميتة كالملك الراقد إلى جوارها، وكأن الطبيعة قد شاركتهما ذلك الموت...

ولكن ما هذا؟؟ لقد انتفض من جوارها كائن حي آخر، يحمله جناحان رقيقان، وأخذ يحوم حول الجسدين الراقدين ثم استقر بجانب أوزيريس...

فهل كان ذلك الكائن هو إيزيس؟ يقينًا فقد كان وجهه وجهها، وكان قوامه في رشاقة قوامها، ولكن لا؛ فهذا الوجه وجه إيزيس حقًا ولكنه اكتسى عظمة وجلالاً، لا يعرفهما أبناء هذه الدنيا، وهذا الجسم جسمها ولكنه نوراني مقدس... لقد انتصرت الربة بوقارها على عواطف المرأة..

وحولت عينيها إلى الجسد الملقى على الرمال، وقد أفعمتا بلون من الشفقة والحب لا تعرفه عيون البشر، ولا تستطيع عنه تعبيرًا ولاحت على ذلك الوجه علائم قوة واعتزاز، وارتفعت الربة بجناحيها وحلقت فوق أوزيريس، وانطلق صوتها في همهمة تشبه تلك التي كانت ترتل بها من قبل، فكانت أشبه بهدير بحر بعيد، وكانت ضربات جناحيها الرقيقين كتنهدات الأرواح في الليل البهيم..

ونظرت إلى أعلى فرأت إله الشمس وقد استقر بقاربه على قمة تل بعيد، قرصًا فاخرًا من الذهب، ولقد حلت الساعة الفاصلة وعليها الآن أن تعلم مدى قوة ذلك العلم المقدس الذي أخذته عن رع في العصور الخوالي.. لقد أفلحت برقاها وتراتيلها في أن تشفي الكثيرين ولكنها لم تحاول قط أن ترجع شخصًا من وراء الحياة إلى هذه الدنيا.. إن غلطة واحدة، أي خطأ في الكلمات أو النغمات يخالف ما رسمته الرقية، كفيل

بأن يذهب أدراج الرياح بكل الآلام والمتاعب التي حملتها صابرة طوال الشهور الماضية..

ولم يدم ترددها إلا لحظات معدودات، ولم يلبث صوتها أن انطلق لا رعشة فيه ولا تقطع. ولم تختلج عضلة من عضلات وجهها رهبة من تلك اللحظة القادمة، ورفعت يديها إلى أعلى، واتجهت بعينيها إلى الغرب، فانعكس في أعماقها قرص الشمس الغاربة، وفي اللحظة التي غاب فيها قرص الشمس وراء التل، منفلتًا إلى وادي توت، صاحت إيزيس بأعلى صوتها مرددة اسم "رع" الخفي.. الاسم الذي تعلمته إيزيس وحدها دون الآلهة والناس.. الاسم الذي يحكم العالم.

وحدثت المعجزة فإن القارب الذي ظل ملايين السنين يختفي خلف ذلك التل، ظهر مرة أخرى على قمة التل وكان إله الشمس "رع" واقفًا بنفسه في القارب وقد حول وجهه نحو الجماعة الصغيرة على رمال الشاطئ، وانتشر في السماء لهب أحمر كئيب صبغ الأرض بالدماء، ثم اختفى القارب الخالد وراكبه الرهيب، وشملت الكون ظلمة ساكنة تتناسب وجمال الموقف..

ولما تلألأت النجوم في القبة الصافية، وأرسل القمر أشعته الفضية على النهر، كانت الربة المجنحة قد اختفت، وبقي على الشاطئ مخلوقان يتنفسان بلطف على الرمال، جنبًا إلى جنب، وكانا يتحدثان في رقة وحنان عن النصر الذي أحرزه الحب والخير على الشر والكراهية.

- ١٣ -

ومر العامان التاليان على إيزيس وأوزيريس في عزلتهما، وهما جد سعيدين، تغمرهما المسرة الدافقة، كانا يسكنان كوخًا صغيرًا أقاماه من أغصان الشجر وأعواد الغاب، وكان النهر يسخو عليهما بالأسماك والطيور؛ فيطعمان هنيئًا مريئًا؛ واستصلح أوزيريس قطعة من الأرض بين الأشجار، وزرعها قمحًا فكانت تغل محصولاً وفيرًا، ولما ولد طفلهما حورس، كان كأس سعادتهما مترعًا يكاد يفيض.

وكانا يجلسان في المساء خارج الكوخ، فيعكف أوزيريس على نايه ينفخ فيه، وتصحبه إيزيس في أغنية تنيم بها الطفل المستلقي في حجرها، أو يركبان زورقًا في نزهة نيلية، حيث يدفع نسيم المساء شراعيها في رقة وسكون، وكثيرًا ما كانا يتحدثان بهدوء عن المستقبل، وعن الانتقام من ست ليستخلصا منه ملكهما، وكانا أثناء ذلك ينعمان برعاية حورس الصغير، وهو يتعثر في خطاه ويتقلب على الرمال.

ومن الحق أنها كانت حياة سعيدة، حياة راحة ومرح، وقد ولت سنوات الكفاح عن طيبة، ولكنهما كانا يتوقان إلى الرجوع إليها مرة أخرى، ولم تكن رغبتهما تلك من أجل نفسيهما.. لا.. ولكن لأنهما أحبا تلك الأرض الطيبة، وأحبا أهلها الذين يئنون تحت نير ذلك المارد القاسي

ست، الذي حالف الأثيوبيين البرابرة، وحكم مصر بيد من حديد، وقد كان الجميع يكرهونه ويتوقون إلى التخلص منه، ولكن قبضته كانت قوية، وكان بطشه شديدًا...

كانت إيزيس وكان أوزيريس يتحدثان في ذلك الأمر، وقلباهما يتمزقان من أجل شعبهما، وما يلقى من أذى وإذلال، وكأنما يدبران لإنقاذه لا بأيديهما، ولكن عندما يشب ذلك الطفل المرح الذي يتعثر على الرمال، ويبلغ مبلغ الرجال عندئذ ستكون ساعة الانتقام، والأخذ بالثأر..

وهكذا مرت الأيام فالشهور، وحالت الشهور إلى سنوات، والطفل ينمو وتظهر قوته، وكان كثيرًا ما يتسلى بصيد الأسماك من النهر بحربة صنعها له أبوه، أو ينصب بمهارة شبكًا لاصطياد البط البري الذي يتخلل الغابة وقد لقنه أبوه استعمال الحراب والهراوات الثقيلة منذ الصغر، كان حورس فخورًا بمقدرته في هذه الفنون، فخورًا بإعجاب أمه بمهارته؛ لقد كان يدير الهراوة حول رأسه حتى تصبح في سرعة البرق، كان يرمي بالحربة قدمًا فتصيب قلب الهدف، لقد كان محاربًا حقًا..

ولكن قطرة مرة، كانت تفسد على إيزيس كأس سعادتها، فقد كان أوزيريس يخرج في رحلات طويلة للصيد، محتجًا بالحاجة إلى مؤنة جديدة، وكان يتغيب في رحلاته هذه يومين أو ثلاثة، تقضيها إيزيس في انشغال وقلق، حتى تسمع صوته المرح يصافح أذنيها عبر المستنقع، وعندئذ تتناول

الصبي بين ذراعيها وتسرع للترحيب بمقدم ذلك الرحالة، والهدوء والفرح يشعان من مقلتيها..

ولم يوفق أوزيريس ذات مرة في العودة في الليلة التالية كعادته، وهي أطول مدة قضاها بعيدًا عن زوجه إيزيس وولده حورس، وارتفع البدر ولم يحضر أوزيريس، فسارت إلى النهر وجعلت تبحث عنه على الضفة، ولكنها لم تقع له على أثر..

ومرت أمام ناظريها صورته وهو ميت مسجى في ذلك التابوت وذكرت تلك الليلة التي واجهت فيها الوحشة والخراب منذ أمد بعيد، فأخذت تروح وتجيء على الشاطئ، لا تستقر ولا تثبت، وهي تتوسل إلى رع، ألا يأخذ منها أوزيريس مرة أخرى، وتناهى إلى سمعها مع أشعة الفجر الأولى نداء جعلها تطير عبر الأرض الفضاء لتلقى أوزيريس الحبيب بعد لحظات قصار..

كان أوزيريس يطارد غزالاً، فاضطر أن يتبعه وقتًا أكثر مما قدر، ولكنه ظل يواصل الرحيل طول الليل في ضوء القمر، لعلمه أن إيزيس ستظل قلقة حتى يعود، وحرص بعد ذلك ألا يغيب أكثر من يوم في رحلاته هذه، وقد طمأن ذلك المسلك إيزيس، وأدخل المسرة على قلبها.

وبعد شهور من تلك الليلة، خرج في رحلته المعهودة، وانقضى يومان دون أن يعود، ومر ثالث دون أن تسمع زوجه الكسيرة نداءه المألوف، وزحفت الأيام في بطء مرير، ولم يعد أوزيريس.. وعندئذ أدركت

إيزيس أنه لن يعود، وأنها لن تراه ثانية، فقد ظفر به أعداؤه مرة أخرى، ولن تشرق الشمس من أجلها بعد اليوم!!

وجلست في الكوخ تحملق بعيون جامدة في الفضاء والرمال والمياه، دون أن ترى منها شيئًا، ومرت الساعات وليس هناك ما يدل على أن جسدها ينبض بالحياة، وأقبل إليها حورس الصغير فلما أخفق في اجتذاب نظرها، رقد في حجرها في سكون، أما إيزيس فقد كانت ميتة بالنسبة لهذا العالم الأرضي، لأنها كانت تعيش في الماضي وذكرياته البيض.

وأوشك قارب رع أن يتم رحلته اليومية حينما أفاقت إيزيس من غيبوبتها، بعد أن ندت عن صدرها تنهدة مرتعشة، وانحدرت إلى الخليج حيث أودعت القارب الذي استقلته في رحلتها من بيبلوس، وكان ملقى بين الغاب بعيدًا عن الأنظار، وأوشكت أن تخطو إليه عندما رأت أنه مشغول، وتراجعت بقفزة صغيرة إلى الوراء، تحولت فيما بعد إلى صيحة فزع ورعب!!

ورفع الشخص الذي يشغل القارب رأسه، فلاحت ملامح ست الشريرة، التي يتميز بها جسده الممسوخ، وقال في خبث:

– هل أفزعتك أيتها الأخت الجميلة.؟ لقد أفزعتك حقًا.؟ ولكن صدقيني أنني لم أكن أقصد ذلك، وكنت سأحضر لرؤيتك عندما أعد القارب للرحيل، فإنني سأصحبك في رحلة؟!

ونظرت إليه إيزيس بعينين جامدتين، زاد الرعب في اتساعهما، ولم تجبه بكلمة واحدة، واندفعت إلى ذاكرتها فظائع ذلك المارد، ولقد أدركت الآن لماذا تأخر زوجها عن العودة.

وقال الشرير حين لم يظفر بجواب:

– يظهر أن رؤيتي لم تسرك؟ والواقع أنه ليس من الأخوة في شيء أن ترحبي بمقدمي على هذا النحو..

وقالت إيزيس وقد جعلتها سخريته تيأس فتسير في هدوء، وهي تركز نظرها في وجهه:

– لقد قتلته إذن؟؟

– نعم لقد قتلته...

قالها ست وهو يتراجع أمام تلك النظرة المملوءة بالكبرياء؛ وقد اعتراه الخوف:

– يا للوحش.. يا للنذل القاسي.. ألم تكن تستطيع أن تتركنا وحيدين هنا؟ ألم تكن تستطيع – والملك في يديك – أن ترد إلينا سعادتنا في هذا المكان؟ وهل لا يزال قلبك الشرير ينطوي على شيء جديد؟

– نعم ينطوي عليك أنت.. إنني سأتزوجك وأجعل منك ملكة مرة أخرى؛ فهل تقبلين التاج الذي أقدمه إليك؟

وقالت إيزيس متجاهلة سؤاله:

– وأين أوزيريس؟

– حيث لن تجديه أبدًا، ولن يمكنك رده إلى الحياة مرة أخرى بالرقى والتراتيل؛ لقد فاجأته وهو يصطاد وذبحته.. ولكي أطمئن على النهاية التي رسمتها له، مزقت جسمه إربًا إربًا، وبعثرته في طول مصر وعرضها.. هل تكفيك تلك الإجابة؟

ولم تصرخ إيزيس؛ ولكن اليأس طغى على روحها؛ فألقت عليه نظرة كلها اشمئزاز وقالت:

– أيها الجبان الخائن.. إن يوم الحساب سيحل قريبًا؛ وستلقى جزاء ما أملته عليك نذالتك..

وتحولت إيزيس تريد الذهاب إلى الكوخ، ولكن ست زمجر وهو يمسك بيدها.

– انتظري... لن تروحي مني هكذا... لقد عرضت عليك عرشي وستجيبين طلبي هذا...

وتحولت إليه إيزيس وفي عينيها غضب جعل يديه تسقطان إلى جانبه؛ وقالت بصوت يرتعد غضبًا:

– امسسني مرة أخرى؛ وعندها ستعلم شيئًا عن قوة إيزيس.. إنك أنت وعروشك جميعهًا لا قيمة لكم لدي وسأرفضها وأرفضك كما أرفض كل شيء كريه..

وصر ست على أسنانه في غضب وصاح:

– أنا أيضًا إله.. ولن تفلح معي ضروب سحرك، وسترحلين معي منذ الغد سواء أحببت ذلك أم كرهته؛ وسأودعك مكانًا أمينًا، ولعل قلبك المتغطرس أن يلين يومًا ما...

قال ذلك وضحك ضحكة ذات مغزى..

وبدءوا رحيلهم في اليوم التالي صاعدين في النهر، يخفرهم خمسون من أخطر رجال ست وأشدهم بطشًا؛ ووصلوا مع الغروب إلى حصن كئيب، حيث ألقت السفينة مراسيها، وقاد ست إيزيس وصغيرها حورس خلال البوابات التي أغلقت خلفهم؛ محدثة صوتًا أجوف؛ شبهته إيزيس بأقفار المقبرة.. وقابلا في الردهة خادمًا عجوزًا وزوجه؛ وقد أفردا لخدمتهما؛ وأصدر ست أوامره القاطعة بأن تعامل إيزيس وصغيرها حورس؛ بما يليق بهما من تكريم واحترام، على ألا يغادرا غرفتهما خلال الليل أو

النهار، ثم استدار إلى إيزيس وعلى شفتيه الغليظتين ابتسامة سخرية كريهة؛ ولكنه لم يفه بكلمة أخرى؛ وعاد إلى رفاقه....

– ١٤ –

ومرت الأيام بطيئة متثاقلة وإيزيس وولدها حورس ملقيان في السجن؛ لا يسعى أحد لإنقاذهما؛ وكان ست يداوم على زيارتهما كل يوم؛ فقد ظن في نفسه القدرة على الوصول إلى مآربه بالوعود الخلابة والتلويح بالحرية والقوة والسلطان في المستقبل؛ ولكن إيزيس أغلقت أذنيها دون الوعد والوعيد؛ وانقطعت تلك الزورات فاطمأنت إيزيس بعض الشيء؛ إلا أن قلبها كان مفعمًا بالشك والخوف؛ فهي تعلم أن سجانها لن يرجع عن عزمه، وأن غيابه ينم عن أمور يدبرها ضدها تتسم كلها بالنذالة والجبن.

وكم توسلت إيزيس لرع أن يعينها؛ وأن يأخذ بيدها؛ ولكنه لم يستجب لتوسلاتها؛ وكان حارس الباب زائرها الوحيد؛ الذي يحضر لها الطعام؛ وزوجته التي كانت تعرض خدماتها بين الحين والحين، وقد أسرت إيزيس قلب العجوز وزوجه؛ ولكن أنى لهما هذا وست قد ألقى رقاه؛ وأعمل فنون سحره في الحصن وفيهما؛ حتى أصبحا لا يدريان طريقًا للدخول أو الخروج!!

وذات مساء بينما إيزيس تداعب طفلها قبل أن ينام؛ ظهر أمامها رجل غريب طويل القامة صارم الوجه؛ فظنته إيزيس أحد أعوان عدوها؛ فدفعت حورس وراءها لتحميه؛ ثم واجهت القادم في تعال وثقة وأنفة.

– من تكون....؟ وعم تبحث هنا...؟

– لا تجزعي يا إيزيس؛ فقد جئت لأعينك لا لأؤذيك؛ ولو قد جئت كما أظهر في السموات إذن لعرفتني جيدًا. أنا توت وقد أرسلني رع إلى هنا لأعينك على الفرار من قبضة المارد ولأساعد في بعث أوزيريس.

ولشد ما فرحت إيزيس بهذا القادم الجديد، فإنه توت إله المعرفة وأكثر الآلهة حكمة، وفي يده مفتاح المعرفة ولن يستطيع أن يقف في وجهه أحد؛ وأوشكت إيزيس عندما أشار توت إلى اسم زوجها، أن تصب عليه سيلاً من الأسئلة، ولكنه ردها في لطف قائلاً:

– ليس هذا وقت الكلام.. إذا كنت تريدين إنقاذ حياتك وحياة ولد أوزيريس، فأعدي نفسك للرحيل، ولكي يطمئن قلبك أزيد على ما قلت، أن اليوم الذي ستجدين فيه جسد أوزيريس آت لا ريب فيه، وسيعود إلى الحياة، وسيحكم مملكة أكبر بكثير مما حلمتما به.

وقد تحقق ما قاله توت، فإن أوزيريس أصبح فيما بعد قاضيًا في دار الموتى، ولكن إيزيس لم تفهم ما عناه توت بكلماته؛ ولم تفكر في مملكة سوى مصر، ولهذا قابلت كلمات الإله باندهاش بالغ ولكنها اطمأنت

واستراح بالها، حينما علمت أنها ستلقى زوجها وتسعد معه مرة أخرى، والتقطت إيزيس طفلها وتبعها توت...

وسار توت تتبعه إيزيس وطفلها حورس في طريق كثير المنحنيات، ومروا خلال الأبواب التي فتحت مغاليقها لمسة من يد الإله الزاخرة بالقوة، واندفعوا في سراديب مظلمة، كانت تنيرها أضواء غريبة عند مرورهم بها؛ حتى وصلوا إلى السهل الخلاء، مخلفين وراءهم جدران السجن.

وقال توت: سأترككم هنا في رعاية خدامي، وخدام رع القوي؛ فاتبعوهم حتى تصلوا إلى مدينة بعيدة إلى الجنوب سيدلونكم عليها، فانتظروا هناك وإلى اللقاء..

وقبل أن تتمكن إيزيس من شكر إله المعرفة توت كان قد اختفى خلف إيزيس وحورس وحيدين، ولكن أين الخدام الذين تحدث عنهم توت، لقد نظرت إيزيس حواليها؛ ولكنها لم تر أحدًا على مدى نظرها، ربما يستغرق هؤلاء الخدام بعض الوقت حتى يحضروا، ولكن رجال ست قد يكتشفون فرارها؛ فماذا تصنع؟ هل تنتظر مكانها أم تختبئ في البردي حتى يصل خدام رع؟

وسمعت صوتًا ينبعث من تحت أقدامها يقول: "حينما تكون السيدة إيزيس على استعداد فإننا سنرحل، ونظرت إيزيس لأسفل فأبصرت عقربًا ضخمًا؛ وآخر وآخر وآخر، حتى عدت سبعًا فهل هؤلاء خدام توت؟ ولو كانت امرأة أخرى محل إيزيس، إذن لملأت الجو صراخًا،

ولاذت بأذيال الفرار، رعبًا من هذه المخلوقات المميتة؛ ولكنها كانت تعلم يقينًا أن الإله يستخدم في مآربه أشد الوسائل تنفيرًا..

وسألت إيزيس: لم تجمعتم هنا؟

فقال أكبر العقارب: أنا تفن وقد جئت لأتبع السيدة إيزيس وولدها حورس؛ ولأقيهما من كل أذى.

– وأنا بفن، وسأمضي مع أخي تفن لأراقب المؤخرة.

– وأنا مستف، وسأسير على يمين السيدة إيزيس.

– وأنا مستتف، وسأراقب يسارها.

– ونحن بتت، وثتت، وماستت، وقد أرسل بنا رع لنقود السيدة إيزيس إلى مدينة الجنوب.

ولما انتهوا جميعًا من كلامهم قالت إيزيس:

– حسنًا.. ولوا وجوهكم شطر الأرض حتى تدلوني على الطريق..

وهكذا انطلقت القافلة العجيبة؛ وظلت إيزيس تواصل الرحيل عدة أيام، والشمس ينعكس ضوؤها على الرمال، ويرتد لامعًا، حتى كلت عيناها، وكانت تلح عليها دائمًا فكرة اكتشاف ست لفرارها؛ واحتمال مطاردته لها. وكان مجرد التفكير في ذلك الأمر يجعلها تحت أدلائها على

الجد في الرحيل، وكانت لا تصبر حتى على مجرد التوقف للراحة. ولكن تلك العقارب السبعة، والقوى المقدسة تسيرها، كانت لا تملك أن تسرع وهي تسير بتوجيه من رع، ولا بد أن يكون توجيهه خيرًا. ووصلوا ذات يوم إلى مدينة تب، فقالت العقارب لإيزيس إنه يجب عليها أن تقيم في هذه المدينة حتى يقضي رع أمره.

- ١٥ -

ولما وصلت إيزيس مدينة تب ذهبت إلى دار الأمير، لعلها تجد لها مأوى، ولكن امرأة الأمير وقد رأت العقارب السبعة في صحبتها، تملكها غضب أهوج، ولم ترفض طلبها فحسب، ولكنها حذرت الخادمات والجواري بالدار من أن تؤويها إحداهن؛ أو تسمح لها بالدخول؛ وهكذا وجدت إيزيس نفسها مضطرة للبحث عن مأوى آخر، فعادت إلى الطريق الرئيسي الذي يؤدي إلى المستنقع، حيث جلست لتستريح...

ومرت بها إحدى الفلاحات الفقيرات، فرأتها مكدودة تحدق بقلق في جذع إحدى الأشجار وكأنما أدركت تلك الفلاحة الفقيرة أن إيزيس ليست بالمرأة العادية، فدعتها إلى منزلها قائلة "يا سيدتي إن الإجهاد يبدو عليك فتعالي معي وسأحمل عنك الطفل... إن منزلي فقير وليس لدي ما أقدمه إلا القليل، ولكني سأقدمه لك كما هو، فليس الفقر بعار!!" وحملت الطفل دون أن تنتظر ردًا على كلامها، فقد كانت تعرف الرد مقدمًا، وسارت إلى كوخ أقيم من الغاب على حافة المستنقع، وهناك

وضعت أمام إيزيس وعاء به لبن وبعض الخبز والفاكهة، وأخذت تطعم حورس من وعاء آخر بينما إيزيس تتناول طعامها..

واستطاعت الفلاحة ببعض الأسئلة الماهرة أن تدرك نوع المعاملة التي لقيتها إيزيس من امرأة الأمير فقالت "إنها امرأة شرسة حقًا، فيها برود وفيها أنانية، إنها تفكر في نفسها فحسب، ولا تمد يد المعونة لأحد طالما هي تستطيع ذلك.. ألا فليتولها رع برحمته"

وسمعت امرأة الأمير بما كان من الفلاحة الفقيرة، فاستشاطت غضبًا؛ وانطلقت إلى الكوخ ناقمة ثائرة فلما وصلت إلى حافة المستنقع؛ صاحت بصاحبة الكوخ:

– كيف تجرئين على إيواء المرأة التي طردتها من داري؟! لو كان الأمير هنا لانهالت السياط على جسدك القذر جزاء هذه الجرأة الوقحة..

– إن السيدة كانت متعبة، ولم أفعل أكثر من تقديم الطعام والشراب لها ولصغيرها، وقد عرضت عليها أن تستريح قيلاً في كوخي، وهل كنت أستطيع أن أفعل أقل من ذلك؟

– هل تستطيعين أن تفعلي أقل من ذلك؟ أتسألينني هذا السؤال؟ ألم اطردها من أجل عقاربها الخبيثة؛ هل توبخينني بإظهار العطف عليها؟ اخرجي من هذا الكوخ حالاً، ولو طلع عليك الغد وأنت فيه فستجلدين ويزج بك في السجن..

ولما انصرفت امرأة الأمير انفجرت المرأة الفقيرة في بكاء حار، وقالت وريقها يكاد يغص بدموعها والشهيق يتخلل كلماتها الحزينة أن كل ما أحببته في حياتي مرتبط بهذا الكوخ، والآن ستطردني منه قسوة هذه المرأة.. آه.. من هذه المرأة القاسية.. وسألتها إيزيس:

– وهل زوجها الأمير قاس هو الآخر؟

– لا... ولكنه يخشى حدة لسانها فيفعل ما تأمره به، ولو استمع لتوسلاتي فلن تتركه في سلام...

– كفى بكاءً يا أختاه. إنك لا تعلمين من أنا ولكنني أستطيع أن أعينك ولن تخرجي من كوخك هذا أبدًا

ولاحظت العقارب السبعة ما لحق بإيزيس – وديعتهم المقدسة – من إهانة؛ فأجمعت رأيها على الأخذ بالثأر، واتفقت فيما بينها على أحسن الطرق لتنفيذ غرضها، واجتمعت بقية العقارب على تفن وأفرغت سمها كله على ذنبه، وتسلل تفن إلى دار الأمير، ودب بين الحصر التي تغطي الأرض حتى وصل إلى مهد يرقد فيه ابنه الصغير، ثم لدغه مفرغًا فيه سم العقارب السبعة....

وصرخ الطفل صرخات عالية أفزعت أمه وجمعًا من الخدم، فأسرعوا لنجدته ولكن هيهات فلم يكن في مقدور بشر أن ينقذه، فالسم الذي سرى في جسده كان قويًا لدرجة لا يفيد معها علاج..

وبعد لحظات قصار فقد الطفل وعيه، وزاد من عظم المصيبة، أن إحدى النسوة – في فزعها – قلبت سراجًا مشتعلاً فشبت النار في الأثاث وسرى الحريق في الدار..

وبينما الخدم يكافحون النيران، ويحاولون حصرها، كانت الأم الثكلى تذرع طرقات البلدة وهي تندب ولدها في أنين مفجع، وصرخات مؤلمة ولكن أحدًا لم يلب نداءها، فإن أنانيتها وجفاف طباعها، قد نفرا الناس منها، فظلت وحيدة تحس الفجيعة، ولكن امرأة واحدة رقت لها!! فإن الغريبة التي طردتها من دارها كانت أمًا، وكان لها طفل، فتحركت فيها عاطفة الأمومة، ورق قلبها لهذه الأم الثكلى، وللطفل الذي عانى دون ذنب جناه، فلما مرت بها امرأة الأمير نادتها...

– تعالي يا سيدتي فإن كلماتي تقي من الشر، وتمنح الحياة.. إنني أستطيع أن أشفي ولدك بالكلمات التي علمنيها أبي، فإذا شئت فأحضريه إلي وسأتولى أمره..

وفكرت المرأة في أول الأمر أن ترفض مكرمة المرأة التي عاملتها في قسوة ونذالة، فانطلقت في طريقها، ولكنها حين لم يهتم أحد بأمرها، أضحت مشوقة لاختبار قوة المرأة الغريبة الطريدة، وحملت طفلها آخر الأمر، ومضت به إلى الكوخ، وسحبته على الأرض أمام إيزيس.

ووضعت إيزيس يديها على رأس الطفل الميت، وصاحت "يا سم تفن اخرج وسل على الأرض، لا تبق في الطفل، ولا تقض عليه، يا سم

تفن اخرج، لأنني أنا إيزيس الربة... أنا التي أعلم كلمات القوة وأعلم كيف أستخدمها..!! إن كلماتي لقوية... يا جميع السموم التي في جسده، اصغي وافعلي ما آمرك به، يا سم مستت وماستتف لا تؤذه، يا سموم بتت وثتت وماستت اذهبي عنه..

وتلك الكلمات السحرية التي تعلمتها من توت والتي لا يعلمها أحد سواها، وهبطت الظلال، وسمع همس نسيم المساء الرطيب بين الغاب، ولم يتحرك الطفل ولما لامس قرص الشمس قمم التلال، هبت إيزيس ومدت ذراعيها نحو الشمس الغاربة قائلة "الطفل يحيا والسم يموت.. الشمس تحيا وقوى الشر تموت" ونظرت النسوة المجتمعات إلى الطفل فرأينه يتنفس بلطف!! وقالت إيزيس وهي تتحول إلى داخل الكوخ "خذيه..."

ونجح الرجال في الوقت نفسه في إطفاء الحريق، وأنقذت الدار من خراب محقق.. لقد تقبلت الآلهة ابتهال إيزيس من أجل المرأة..

وسمعت طرقة لطيفة على باب الكوخ خلال الليل المظلم، ودخلت امرأة الأمير بعد أن فتحت الفلاحة الفقيرة باب الكوخ وتقدمت المرأة من إيزيس وجلست عند أقدامها، وقالت في تلعثم "لقد أغلقت بابي في وجهك هذا الصباح، فقد خشيت على ولدي من عقاربك، وغضبت لأنك تصحبينها، ولذلك رددتك، وقد لقيت جزائي على ذلك، وأنا الآن أرجو عفوك عن فظاظتي.. فهل تصفحين؟"

– ليس هناك ما يستحق الصفح، فقد فعلت ما تعتقدينه الصواب، يدفعك إلى ذلك حبك لطفلك، واعلمي أن اللين والحب يفيدانك أكثر من القسوة والكراهية...

– وهل أستطيع أن أفعل لك شيئًا أكفر به عن قسوتي؟

– هناك شيء واحد.. هو هذه المرأة الفقيرة، فقد هددتها بالطرد من الكوخ الذي ارتبط بقلبها وذكرياتها... اسحبي كلماتك المتسرعة، وامنحيها الكوخ مدى الحياة تأكيدًا لإخلاصك، وأعلني النبأ في القرية منذ الغد، حتى يعلم الناس أنك خيرة طيبة القلب.

وترددت امرأة الأمير في بداية الأمر في إجابة هذا الطلب، والواقع أنها كانت تريد إصلاح موقفها من السيدة الغريبة القوية ولكنه لم يقع في حسابها أن تظهر عطفها على المرأة المسكينة بعد أن ثارت عليها في الصباح، وبعد إعمال الفكر والتروية، وجدت أن ثلاثتهن إيزيس وهي والمرأة الفقيرة، هن اللواتي شهدن الحادث ووجدت أنها تستطيع أن تمسك لسان المرأة فقالت:

– إذا كانت ستنسي ما حدث وتغضي عما تفوهت به هذا الصباح، فإنني لن أفكر في إيذائها، ولكنني أشعر نحوها بالامتنان لأنها صادقتك، وغدًا سأنفذ مشيئتك، وأعلن أن هذا الكوخ لها مدى الحياة.

– اتفقنا إذن، ولن تذكر هذه المرأة شيئًا عما حدث، وستذكرك بالخير دائمًا...

وانصرفت امرأة الأمير إلى دارها، ولم تكد تغادر الكوخ حتى جثت المرأة المسكينة أمام إيزيس وانهمر من شفتيها فيض من الشكر لهذه السيدة صانعة المعجزات...

بعد هذه الأحداث فكرت إيزيس في الرحيل من تب، فقد ذاعت أعمالها في طول البلاد وعرضها، فخشيت أن تصل هذه الأنباء إلى مسامع ست فيقع المحذور..!

ونادت إليها العقارب السبعة فلما أقبلت قالت لها" أديري وجوهك إلى الأرض وأرشديني إلى مستنقعات "خبت" ومخابئها فلما سمعت العقارب ذلك أدارت وجوهها إلى الأرض، واتجهت إلى الشمال نحو الدلتا، وانطلقت مرة أخرى...

وأرض خبت هذه التي تحدثت عنها إيزيس جزيرة مسحورة نائمة على صدر النيل العريض قرب بلدة بوزيريس، وفي استطاعة من يعرف سر هذه الجزيرة أن يحركها من أساسها، فتطفو على النهر إذا أراد، ولكن السر كان معلومًا لقليلين، هم إيزيس وأختها نفتس، وصديقة لهما تقطن تلك الجزيرة، وتقوم على رعاية ممتلكاتها السحرية.

وهكذا مضت إيزيس على الطريق الصعبة الطويلة، بمعونة حلفائها المخلصين العقارب السبعة، حتى وصلت إلى أرض آم حيث احتفى بها الناس كربة من الربات، فأقامت فترة من الزمان بعد إلحاح مستمر، ولما كانت أرض آم قريبة من خبت، فقد شكرت إيزيس العقارب السبعة، ثم أذنت لها في الرحيل.

وأقامت إيزيس في أرض آم في سعادة واطمئنان، فليس هناك عدو قاس يزعجها، ولا خوف هناك من اختطاف صغيرها الحبيب وقد حصنته بالرقى والتعاويذ، التي أخذتها عن رع في العصور الخاليات، فهو الآن آمن من ست وخدمه وأتباعه، وهكذا أخذت ورود الحياة تتفتح أمامها، وأخت تجد في رعاية ولدها وهو يدرج نحو الرجولة عزاء عن أحزان الماضي...

وكانت إيزيس تخرج كل يوم تلتمس الطعام لها ولولدها وكانت تترك حورس في رعاية أصدقائها، وكم ألح عليها هؤلاء الأصدقاء أن تريح نفسها من هذا العناء، وأن تأخذ ما تحتاج إليه من طعام من طعامهم، فقد كانوا يرون ذلك تكريمًا لهم، ولكنها كانت تأبى ذلك على الجميع، فقد كانت بخروجها تتنسم أخبار عدوها ست وكم كانت تسر حينما تعود في المساء الرطب، فيسرع حورس الصغير في مرح على الدرب المترب ليستقبلها، وكم كانت تضحك عندما يحاول في براءة الطفولة أن يستعمل الرمح والهراوة والقوس، وكانت تسميه أوزيريسها الجديد، الذي سيثأر لها من عدوهم جميعًا...

ولا يستطيع قلم أن يصف حنان الأمومة الذي كانت إيزيس تظهره، عندما تضم صغيرها إلى صدرها في المساء وهي تغني له أغنية ينام على رجعها، لقد كان كل ما تملك في الحياة، وقد عاشت من أجله ومن أجل ما سيقوم به من أعمال، فوقفت على ذلك كل تفكيرها وحبها..

ولكن إيزيس رغم عنايتها تلك قد نسيت أمرًا واحدًا، وفجأة ذبلت الورود التي تفتحت تحت لمسة الموت الباردة، وأصبحت الأرض عارية خلاء..! ففي إحدى الأمسيات لم يخف حورس للقائها كما تعودت، فأسرعت إلى الدار وقد غمرها إحساس قاتم بارد كالموت، وهناك كان الطفل مسجى على الأرض وقد انتفخ جسمه وتورم، حتى لا يستطاع تبين ملامحه، وقد تصلبت عضلات وجهه، وتوترت أطرافه، فقد كان الطفل ذو الشعر المجعد ميتًا... لقد حصنته من شر ست وأتباعه، ولكنها لم تقم وزنًا لأشد الحشرات خطرًا على الأرض وهكذا لدغته في غيبتها عقرب شريرة وها هو مسجى بين يديها وكأنه لم يكن شيئًا...

وتفصيل ما حدث أن إعادتها لابن الأمير إلى الحياة في تب أثار أحد العقارب من أتباع توت، فذهب إلى ست ونقل إليه الخبر ولكن ست الشرير لم يستطع أن ينال من إيزيس، وقد دل سحرها على أنها أقوى منه بكثير ولكنه قوم سم العقرب بطريقة سحرية، وأمره أن يعود إلى أرض آم وأن يلدغ حورس وكان الشرير يعلم أنه يؤذي إيزيس بالقضاء على ولدها أكثر من أي شيء آخر...

وتجمع جيرانها حينما سرى بينهم النبأ المفجع، فأسرعوا إلى الدار وجلسوا حولها يبكون لفداحة المصاب، ولم يفه أحدهم بكلمة، فإن الكلام في بعض الأحيان يعتبر اجتراء على قداسة الحزن.

وهكذا التفوا حولها في حزن صامت، وقد حاولت إحدى النسوة المشتهرات بالحكمة في الجيرة أن تشفي حورس، ولكنه ظل كما هو لا حراك به، وأخذت إيزيس تندب ولدها بصوت مرتفع والدموع تنهمر على خديها، ولكن ذلك كله لم يكن مجديًا فإن الندب والعويل كل ذلك لا يستطيع أن يعيد الحياة إلى الطفل.

وبينما إيزيس في حزنها المرير تقلب النظر هنا وهناك ذاهلة، مرت بها أختها نفتس وفي صحبتها ربة العقارب سركت فسألتها نفتس:

– ماذا جرى يا إيزيس؟ ولماذا تبكين في مرارة...؟

– واحزناه... لقد مات ولدي... لقد أخذ مني حورس الجميل...

– مات؟؟... مات...؟ وكيف مات...؟؟

وارتجف صوت نفتس للفجيعة، واندفقت من عينيها دموع حرار، فقد كان الطفل حبيبًا إليها وأجابت إيزيس سؤالها:

– هذا المساء عندما عدت إلى الدار... انظري.. أنه ملقى على الأرض ميتًا... لقد لدغه عقرب أرسل به ست الشرير... لقد اغتصبوا كنزي وأخذوا حبيبي مني...

والتفتت نفتس إلى ربة العقارب وقالت لها:

– سركت... إن لك عملاً هنا...

– لا... لقد فات الوقت الذي كنت أستطيع فيه استخدام قوتي، لو أن إيزيس طلبت عوني من قبل إذن لمنعت العقرب من لدغه، ولكنني لا سلطان لي على الحياة والموت، إن ذلك عمل رع القوي.

– إنه لكذلك...؟ إيزيس... ادعي أبانا رع القوي، واطلب إليه أن يعيد الحياة إلى وحيدك.

وعند طلوع الفجر عندما بزغ رع من وادي أمنتت واستقر في زورق الزمان، تصاعدت صلوات إيزيس خلال ضباب الصباح إلى السموات العلى، وأخذت تبتهل إلى مبدع الأشياء في كلمات يقطعها البكاء والأنين أن ينصت إلى ضراعتها الحزينة، فقد قضى ست على زوجها أوزيريس بالموت ذبحًا وتشريدها في الأرض، وها هو الآن قد سلب منها طفلها الوحيد، وصرخت في لوعة "أعده إلي ثانيًا أيها الإله رع... أنت يا من تملك مفاتيح الحياة والموت، استمع لصلاتي ولا تدع ولدي الوحيد يؤخذ مني على هذا النحو..."

وهكذا أخذت إيزيس تبث الإله حزنها ولوعتها، وبينما الجماعة الحزينة تحملق في السماء بعيون ضارعة، ووجوه صامتة حزينة، حدثت المعجزة، فقد بلغت صلوات إيزيس مسامع رع، وتوقف قارب الزمان عن المسير وهبط توت إله المعرفة إلى الأرض ووقف مرة أخرى أمام الملكة الشريدة وقال: "أيتها الربة.. يا من تعرفين كيف تستخدمين تعاليمي، اعلمي أن الطفل حورس لن يلحق به أذى، لأن حفظه منوط بقارب رع، لقد جئت اليوم في قارب قرص الشمس من المكان الذي كان فيه بالأمس لأن الظلام قد طغى عليك، وإن نوري سيبدد هذا الظلام بإحياء الطفل حورس من أجل أمه إيزيس..".

وكانت إيزيس في بداية الأمر لا تحر جوابًا، ولكنها بعد ذلك، ودون أن تنطق بكلمة قادت الإله إلى الفراش، حيث سجى جسد ولدها، وأشارت إلى الجثة المشوهة بالدموع تنهمر وهمست ألم يمض الوقت بعد؟ ولكن لا... إن لرع سلطانًا على كل شيء وإن كلمته لتمنح الحياة... أعده إلي... إنني أبتهل إليك.."

وقال توت: "لا تخافي يا إيزيس... ولا تبكي يا نفتيس... لأنني هبطت من السماء لأنقذ الطفل من أجل أمه..." وانحنى الإله على الطفل وأخذ يتلو كلمات السحر التي تكمن فيها القوة، وعندئذ، يا للعجب أي تحول قد حدث؟ لقد لانت الأطراف المتجمدة، واستدار الجسد ذو الشكل المتميع، وسرت الدماء في خديه ووجهه، وهناك.. نعم.. لا يمكن لإنسان أن يخطئ النظر... لقد أخذت بسمة شاحبة تداعب الشفتين

الذابلتين، وقال توت وهو يستدير إلى إيزيس: "لقد عاد إليك طفلك ثانية فخذيه، واشكري رع الواحد القوي لأنه سمع صلاتك واعلمي أنه يرعى المظلومين والمغلوبين على أمرهم.."

وقفزت إيزيس إلى مهد الطفل في جذل وسرور، وضمت الطفل إلى صدرها في لهفة، ونسيت العالم في غمرة فرحها، ثم ذكرت أنها لم تؤد فروض الشكر إلى ذلك الذي استجاب لصلاتها، فاستدارت إليه لتشكره، ولكن توت كان قد ذهب، وحتى قارب الزمان كان في ذلك الحين يسرع على طريقه المرسوم...

- ١٦ -

وأخيرًا آن الأوان لتبدأ إيزيس البحث من جديد عن جسد أوزيريس، ولكنها قبل أن تبدأ بحثها يجب أن تجد مأوى لحورس الصغير، فهي تخشى عليه أتباع ست أن يعثروا به، ويختطفوه تاركين لها الحزن والأسى، فذهبت تلتمس النصح من أختها نفتس فنصحتها بإيوائه عند آهورا كاهنة الجزيرة المسحورة القريبة من بوزيريس.

– حقًا... وأي مأوى آمن من تركه مع آهورا على الجزيرة المسحورة، فهي الوحيدة سوانا التي تعرف أسرارها، وليس من الحكمة أن تتعرض حياة حورس للخطر مرة أخرى، ولكن بفرض أن ذلك حدث فسيكون هناك في مأمن، فهو يستطيع بكلمة واحدة أن يبتعد عن الخطر.

– أصبت يا أختاه... إن ست لنذل ماكر وأنا أعلم بنواياه، وقد يوفق إلى طريقة سحرية تبطل تأثير تراتيلي. سيكون ولدي آمنًا في الجزيرة..

وفي الصباح التالي أبحرت الأختان إلى بوزيريس، وفي العدوة الأخرى أبصرتا الجزيرة المسحورة، وطلبتا من الملاح أن يعبر النهر بهما إلى تلك الجزيرة، فأبى وقال يرد على احتجاجهما: "إن هذه الجزيرة ليست من الأرض فإن أرواح الموتى تسكنها، ولا يستطيع أحد أن يمس شواطئها ويعود حيًا، اطلبوا مني أي شيء آخر أقوم به مسرورًا، أما هذا فلا.. لست أجرؤ على ذلك.." ونقدت نفتس الملاح أجره وصرفته مشكورًا، وقالت لإيزيس حين رحل:

– لقد أحسنا صنعًا إذا كانت هذه الفكرة منتشرة عن الجزيرة في هذه الأنحاء؛ فإن نبأ حورس ومأواه لن يصل إلى مسامع ست الشريرة.

– أصبت يا نفتس... لقد أحسنا صنعًا؛ نادي إلينا الكاهنة آهورا إذن...

وجعلت نفتس من يديها بوقًا رن من خلاله عبر الماء.

– آهورا... آهورا...

– من ذا الذي ينادي آهورا؟ من ذا الذي جاء ليفسد علي عزلتي؟

صدر الصوت عن عجوز انحدرت إلى حافة الماء وقد اتشحت بالبياض؛ فأجابتها نفتس:

– ابنة سب ونوت وتعرفينها جيدًا فتعالي وأسرعي..

وفي لحظات معدودات كانت الجزيرة تندفع نحو الشاطئ، حيث وقفت الربتان ومعهما حورس، ولما اقتربت الجزيرة ولامست الشاطئ خطا الجميع إليها، وكانت الكاهنة عجوزًا شمطاء، ولكن وجهها كان يجتذب إليه نظر كل من رآه، فقد كان الابتسام يعلوه دائمًا.

وجثت المرأة في خشوع أمام زائريها، ولكن إيزيس تقدمت إليها وأعانتها على النهوض، وقالت لها: "أرى أنك تعرفينني جيدًا، ولكنني ما جئت لألقى تكريمك وتقديسك، فأنصتي بعناية لما أقول، فإن حسن إنصاتك وطاعتك العمياء يتوقف عليهما أكثر مما تظنين"

وفصلت إيزيس الأمر باختصار؛ وأصدرت تعليماتها للمحافظة على الطفل، ثم ودعت بعد ذلك وحيدها بين الدموع والالتياع، ثم تحركت نحو الشاطئ وقالت وهي تسرح بصرها في الجزيرة الجميلة ذات الغابات والخمائل والعيون الجاريات "تذكري، واحرسيه جيدًا من كل أذى" فأجابت آهورا: "سأتذكر، ولن يستطيع أي شر أن يناله هنا؛ ثقي من ذلك..." وابتعدت الجزيرة عن الشاطئ في سرعة كبيرة؛ ثم استقرت وسط المجرى كما كانت من قبل، وأدارت إيزيس ظهرها للجزيرة؛ وانطلقت مبتدئة بحثها الثاني عن أوزيريس..

وقد اتخذت إيزيس لها قاربًا من الغاب أول الأمر وجدلته بأعواد البردي، ثم طلته بالقار من الداخل والخارج، فجمع إلى الخفة متانة وقوة، وقد كان المصريون يعتقدون أن التماسيح لا تمس أحدًا يركب قاربًا من البردي؛ وقد اعتبروا كل ما يصنع من البردي مقدسًا تكريمًا للربة إيزيس، ولما تم صنع القارب سيرته إيزيس مع المجرى باحثة عن جسد زوجها الحبيب.

كان البحث في هذه المرة شاقًا، لا يقاس إلى بحثها الأول من حيث الصعوبة، فإن ست الشرير قد مزق جسد أخيه وبعثر أشلاءه الأربعة عشر في أنحاء القطر المصري، وقد أمل بهذا ألا يستطيع أحد أن يجد كل هذه الأشياء، فيعيد أوزيريس إلى الحياة مرة أخرى، فأي عجب إذن في أن تشعر إيزيس باليأس وهي لا تعلم من أين، ولا كيف تبدأ بحثها؟

كانت تمر بكل بلدة فتسأل الناس عن أية دلالة قد تؤدي إلى كشف عضو من الأعضاء الدفينة، وكانت تقيم في كل مكان تعثر فيه على شلو من الأشلاء معبدًا جميلاً وتضع فيه تمثالاً من الذهب لأوزيريس وكانت تلف الشلو الذي تجده بعناية في نسيج من الكتان صنعته بمعاونة أختها نفتس وولدها أنوبيس، وتحنطه بمهارة حتى لا يلحق به الفساد أو يطرأ عليه التغيير، وكثيرًا ما كانت تنقضي الأسابيع طويلة مملة، والشهور التي لا تنتهي تجر أقدامها في بطء وتثاقل دون أن تعثر إيزيس على شيء، وكان قلبها كثيرًا ما يطفح بالحزن المرير...

وذات مساء رسا القارب على الشاطئ قرب أبيدوس، وكانت الشمس تسبح في بحر من القرمز والذهب، وكانت التلال الرملية الداكنة العارية طوال النهار، تغتسل في أشعتها الدافئة، وقد اكتست زرقة وردية، وكانت صفحة النهر الغبراء تعكس ألوان السماء، أشعة حمراء قرمزية، وصفراء برتقالية، وقد ارتدت حزاما من الأشعة البيض عن جدر المنازل والمعابد اللماعة على الشاطئ، وقد تحولت إلى لون داكن هادئ، وحتى تلك الأكواخ الطينية البائسة، قد رق شكلها ولطف، وكأنها تقاسم الكون مرحه وجماله في هذه الساعة، وكأنما إله الشمس حينما غاب وأخلد إلى الراحة قد أسبغ على الكون بركاته، محولاً الركود الذي يؤذي الأنظار ويسئم العقول، إلى لوحة غنية بالألوان والظلال..

وقد تسرب هدوء ذلك المنظر إلى نفس إيزيس المتعبة، وأغراها بالراحة، فغادرت عينيها تلك النظرة الموزعة التي تعودت أن تملأهما، وبدأت تسير بتثاقل على حافة النهر المغطاة بالرمال وانقض شهاب على قمة مذهبة لبناء ضخم، مرسلاً لسانًا من اللهيب الوردي خلال التخيل إلى الخليج حيث انتهى بكرة من النار، وانبعثت من تلك الكرة أشعة كثيرة خاطفة لا تقوى العين على تحمل بريقها حتى أن المرأتين غطتا عيونهما بأيديهما..

ووقفت إيزيس فجأة في مقدم القارب تحملق بشدة في الكرة النارية، ثم أسرعت إلى الدفة، وسيرت القارب إلى الخليج، فلما وصل قفزت منه إلى الشاطئ. وأسرعت قدمًا، ثم ألقت بنفسها على الرمال..

وتلاشت أشعة الغروب بسرعة، وشاع الظلام في الكون، ولكن الشيء الغريب الملقى على الشاطئ كان لا يزال يلتمع، وكان يبدو أنه حي، فلما غابت الشمس بدا وكأنه مصدر النور، ولكن إيزيس لم تلق بالاً إلى ذلك كله؛ فقد وجدت رأس سيدها أوزيريس هناك..

وقد أقامت إيزيس في هذه البقعة معبدًا فخمًا، تمجيدًا لعثورها على رأس أوزيريس، وأهدت إلى ذلك المعبد – معبد أبيدوس – الذي أصبح من أشهر معابد مصر، تمثالين من الجرانيت لأوزيريس ولها، ووضعت على أعلى قمة في المعبد تمثالاً من الذهب الخالص للإله، بحيث تقع عليه أول أشعة للشمس وآخر أشعة للشمس الغاربة، كأنهما تحيتا الصباح والمساء.

ومر يوم بعد يوم، وتبع الأسبوع أخاه في تراخ ممل، وقد كان الإخفاق أكثر احتمالاً، ولكن اليأس بظلمته لن يجد إليها سبيلاً، فقد ملأها العثور على رأس أوزيريس بثقة لا تموت، وعلى ذلك فقد تابعت بحثها وصبرت عليه...

وبعد جهد جهيد، وزمن طويل، انتهى البحث المضني، وتجمعت الأوصال المبعثرة، وثوى جسد زوجها الممزق في القارب وعادت إيزيس إلى الدلتا بمعونة أختها نفتس، ودخلت بالقارب مناطق البردي ولما اطمأنت للمكان سجت الجسد على الرمال، وتلت عليه الكلمات السحرية التي تعلمتها من توت، وجرى للمرة الثانية ذلك العمل الذي أحال مداخل

النيل عند الدلتا إلى بقاع مقدسة، ذلك هو بعث أوزيريس. تم ذلك العمل في جو من الرهبة الحزينة والجلال الرهيب، وتعاون حب المرأة مع فضيلة الربة وقوتها وكلل ذلك كله رقى وتعاويذ، فعاد أوزيريس إلى الحياة مرة أخرى..

– ١٧ –

انقضت بعد ذلك سنوات شب فيها حورس – وديعة الجزيرة المسحورة – عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال، وأصبح قويًا متين البناء، فلم يكن هناك من يهز الرمح كما يهزه حورس، ولا من يجذب القوس ويسددها فلا تخطئ الهدف كما كان يصنع، وفي حلقات الصراع كان له السبق فقد كان أكثر من بطل!!..

كان يصارع بالهراوة الطويلة فيصرع أعداءه أجمعين، أما مهارته في السباحة والغوص، وسرعته في العدو، فقد أصبحت مضرب الأمثال. كان لا يخشى شيئًا، وكان متزنًا في جلال، وكأن أباه أورثه القدرة على اجتذاب قلوب الناس، بما جبل عليه من طيب الصفات وحميد الخلال، هكذا كان حورس الشاب ابن إيزيس وأوزيريس.

ولم يكن حورس حتى ذلك الوقت يعلم شيئًا عن أصله النبيل، فعمل كفلاح بسيط، وأمضى في ذلك العمل أيام شبابه الأولى، ولكن سلوكه النبيل وقوته الجبارة سرعان ما اجتذبا إليه أنظار الشيوخ والمجربين

في القرية، فلم يخف عليهم أن هذا النبل الملوكي الذي وجد بينهم بشكل غامض لا تجري في عروقه دماء العامة، وأنه أرقى منهم، ولقد كان حورس ضيفًا محبوبًا من الجميع كبارًا وصغارًا، تفتح له الأبواب، ويلقى الترحيب والتكريم حيثما حل أو نزل.

ولما اكتمل حورس ونضج، فكر أوزيريس في أنه من الحكمة أن ينبئ ولده بالمسئولية التي تنتظره فاستدعاه إليه ذات مساء بعد أن انتهى من عمله ودار بينهما الحديث التالي:

– هل رأيت الجنود الذين مروا على الطريق اليوم؟..

– نعم يا أبتاه، والناس يقولون أن حربًا شبت في الجنوب، وأنهم ماضون لمساعدة كتائب الملك.

– ستنقضي بضعة أيام قبل أن يصلوا إلى العاصمة، إذا كنت جنديًا يا حورس فأي الدواب يصلح لك؟

– الجواد...

– ولماذا تقرر أن الجواد خير لك من أسد مدرب؟..

– الأسد يصلح لخدمة من يريد الحماية والنجدة، أما الجواد فأكثر صلاحية لمن يريد اللحاق بالعدو وإبادته، وهذا مطلب المحارب الصادق الذي لا يفكر في الاستنجاد بغير قوته..

– وما هو أجل عمل يقوم به الإنسان؟.

– أن ينتقم لما أصاب أباه وأمه..

– بورك فيك يا بني.. اجلس إلى جواري فإن لدي الكثير مما أريد أن أقصه عليك..

وهكذا قص أوزيريس على ولده حورس قصة حياته في طيبة، وجهاد لخير الناس ومصلحتهم، مما اكسبه ثقتهم وحبهم، وكيف ظهر ست في الميدان، وكيف استعمل أساليب الخداع والخيانة، فاغتال أخاه واستولى بنذالة على العرش، ولما وصل أوزيريس في قصته إلى وصف تجوال إيزيس وألمها وفوزها الأول، ثم القتلة الثانية وتمزيق ست لأوصاله، وقسوته في معاملة إيزيس، أربد وجه حورس غضبًا وأومضت عيناه، وتقبضت أصابعه، وسرت بأطرافه وجسده رعدة الغضب، الذي ثار داخل نفسه، ولكنه لم يفه بكلمة ما، وأنصت في سكون إلى رواية أبيه، وكأنه كان يتشرب كل كلمة تقال، حتى ألم بدقائق الجرائم التي اقترفها ذلك المغتصب.

وقال أوزيريس مختتمًا قصته: والآن فإن يوم الحساب قد اقترب ولن أستطيع البقاء معك، فالآلهة تدعوني إليها إلى وطني الأصيل في السماء وإليك يا بني الوحيد كل مهمة الانتقام لما أصاب أباك من أذى، وما لحق بأمك من إهانات، ولكنني أعلم أن شرفنا سيستعيد مكانه القديم، وسأرعاك يا بني من مقري الجديد، وسأرعى جهادك المقبل، وأرجو ألا

تكون رعايتي بلا جدوى!.. إنك ستمضي قدمًا إلى القتال، وأنت تعلم أنك تقاتل للحق والعدالة فاجعل هذا الهدف نصب عينيك تنتصر دائمًا.

ووقف الرجلان، الأب والابن، وجهًا لوجه، ونظر كلاهما إلى الآخر، ثم جثا الابن على ركبتيه، وتناول يد أبيه، وأحنى رأسه وقبلها قائلاً "سأنتصر يا أبتاه..."

- ١٨ -

وصعدت السفينة ذات الشراع الحريري مسرعة في النهر، ولم تكن في هذه المرة متشحة بالسواد، مثلما كانت وهي تحمل جسد أوزيريس ولكنها كانت تخطف الأبصار ببياضها الناصع البراق وكان الثلاثة الذين جلسوا تحت المظلة السميكة قرب الدفة، يرقبون الضفاف وهي تختفي بعيون ذاهلة، ترى ما الذي كان يجول بأفكارهم خلال آخر رحلة يقومون بها معًا؟.. ذكريات حلوة عن الساعات السعيدة التي قضوها في هذه الأنحاء، والتي كان صفوها يتكدر أحيانًا عندما ينعكس وجه عدوهم المسخ على صفحة ذاكرتهم، ولكنهم كانوا يتخلصون من هذه الصور بسرعة، ولم يكونوا يتكلمون بين الحين والحين، إلا ليستعيدوا ذكرى مرحة ليوم من الأيام الخوالي.

وأسرع القارب تدفع الريح الطيبة شراعه، وهناك على مدى النظر كانت تقبع مدينة بوتو، وهي مدينة كبيرة من المدن الغابرة وإلى الشرق

منها كانت تبدو قباب المعبد الذي أصبح فيما بعد مدينة عون العظيمة، وفي العدوة المقابلة كانت تتناثر على الشاطئ أكواخ قليلة من الطين، هي موقع مدينة لما تزل في ضمير الغيب وهي ممفيس المستقبل، وإن كان حاضرها الفقير لا يدل على مستقبلها المترف السعيد، ولم يتوقف القارب عند واحدة من هذه المدن بل استمر في الرحيل حتى بدا لهم تمثال أوزيريس الذهبي الذي يتوج معبد أبيدوس، وترتد عنه أشعة رع في ألسنة من اللهب الحي، وأدر حورس دفة القارب إلى الضفة الغربية حينما أمره أبوه بذلك، وأسرع القارب في هذه البقعة نحو شق غائر في التلال، ودلفت الجماعة إلى الشاطئ وقطع أوزيريس ذلك الصمت قائلاً: "لقد حانت ساعة الوداع، وكم كنت أود أن أبقى بينكم، لأتم العمل الذي بدأته وأنقي هذه الأرض من الشرور ولكنني يجب أن أمضي، أما أنت يا بني، فإنني أمنحك القوى الإلهية؛ وأسبغ عليك لقب "ابن الشمس" الذي ستتمكن بقوته من الانتصار على كل أعدائك، فامض إذن وأد واجبك وليشد من أزرك علمك بأن رع سيكون معك دوامًا، وسأرعاك أنا أيضًا وأحميك من الأخطار، وإلى اللقاء يا ولدي.. يا ولدي النبيل إلى اللقاء..."

وجالت الدموع في عيني حورس، وهو ينظر في وجه أبيه وكأنه يتملى من صورته؛ وقال: "إلى اللقاء يا أبتاه.. وسأعيش دائمًا وأنا جدير بالاسم والشرف الذي منحتني إياهما".

ومضى أوزيريس تصحبه إيزيس نحو التلال فقال لها: "وأنت يا زوجتي يا من ظلت شجاعة صادقة، يا من تحملت الألم وضحيت من

أجلي، هل أستطيع أن أقول لك أيضًا إلى اللقاء؟ ولكنني لن أنساك لحظة واحدة، وسأظل في انتظار اللحظة التي تلحقين بي فيها ثانية" وقالت إيزيس باكية: "ألا يمكن غير ذلك يا زوجي الحبيب هل قدر لي أن أراك لأذوق مرارة فراقك مرة أخرى؟ وعلى هذا النحو؟ ألا أستطيع أن أصحبك إلى حيث تذهب؟"

– لم يحن الوقت بعد يا إيزيس وقد لا يكون.. لقد قرر الآلهة أن ألحق بهم الآن، أما أنت فلا يزال أمامك ما تعملينه هنا سيمر فصل واحد أعود بعده إليك، ولن يكون هناك بعدئذ رحيل ولا دموع..

– إنه لعسير، إنه لمن الصعب أن أفقدك مرة أخرى، ولكن لتكن مشيئة السماء..

– إلى اللقاء يا وحيدتي الحبيبة، ولن يبطئ ذلك اللقاء، ولكن انظري إن إله الشمس ينتظرني ويجب أن أمضي.. إلى اللقاء مرة أخرى..

وبعد العناق الأخير انفصلا عن بعضهما، وعندما قارب أوزيريس الشق الغائر في التلال، هبط قارب الزمان وهبط حتى ملأ الثغرة، ولما وصله أوزيريس، وقف كائن فيه ورفعه إلى القارب، وبعد لحظة رآه الواقفون على الشاطئ، يقف بجوار الدفة، وقد وقف إلى جواره إله الشمس بنفسه، وقال أوزيريس مادًا ذراعيه للأمام: "لكم بركاتي وستكونون في رعايتي دائمًا.. ورع أيضًا طلب إلى أن أبارككم باسمه"

وحمل نسيم المساء صوتًا عميقًا، غني النبرات أجش كأنه صوت أرغن ينبعث في موجات لا تنتهي من النغمات الرقيقة الحلوة "سيتوجون بالخلود والسعادة... أولئك الذين أخلصوا إلى النهاية حتى الموت.. إنهم يبكون اليوم، ولكن المسرة ستأتي مع الصباح. وستكون البقية مفرحة.. فثقوا أولاً ولا تخشوا شيئًا" وعندما سكن صوت إله الشمس انزلق زورق الزمان إلى أعماق الليل..

وأبحرت إيزيس في صحبة حورس بعد أن غادرهما أوزيريس، وسار بهما القارب عدة أيام دون توقف حتى وصل إلى أرض بعيدة في أقصى الجنوب..

وتقمص رع في صورة إنسان وهبط إلى الأرض، وهو القادر على الوجود في أي مكان ليحكم تلك الأرض مساعدة لولده، وكان ست في هذه الآونة في الدلتا، وكأن المستنقعات وأدغال البردي، كانت تناسب طبيعته أكثر من السهول الجافة في الجنوب وكان السكان في تلك الأنحاء يئنون تحت حكمه ويتلهفون على عودة عهد أوزيريس، ويتحينون الفرصة للقيام بثورة على ذلك الطاغية وعندئذ يضطر المارد إلى ترك أرض الجنوب وشأنها..

ولكن أهل النوبة وهم برابرة متوحشون كانوا يفضلون حكم ست الموسوم بالفوضى على حكم رع العادل المنظم. ولذلك حاربوه فلم يسع رع إلا أن اقتحم عليهم ديارهم، وقضى على الثورة واعتقل قادتها وذبحهم،

ثم عاد إلى إدفو حيث وصل حورس وطلب إليه أن يمضي ليجهز على بقيتهم ويتم هزيمتهم..

ولم يكن حورس قد نسي القوى السماوية التي خلعها عليه أبوه فتشكل في صورة قرص الشمس المجنح، وصعد في المساء فأبصر من مكانه المشرف بأعداء أبيه يتكتلون معًا فهبط عليهم في غضب كي يفقدهم حواسهم، وفي غمرة الفزع أعملوا القتل في بعضهم البعض وعاد حورس بعد ذلك إلى قارب رع الذي اقترح أن يرحلوا بطريق النهر؛ ليكونوا على مرأى من المعركة..

وكانت المردة تسكن الأرض في تلك العصور، وكانت ذوات قوى معجزة، فلما مضى رع وحورس وأصبحا على مقربة من أعدائهما ليراقبا حركاتهم؛ تشكل أتباع ست على صور التماسيح وأفراس البحر وخاضوا في الماء؛ وقد أمل العدو أن يتغلب على الإلهين بهذه الصورة.

وكانت أسلحة سكان الوادي كأسلحة غيرهم من الشعوب التي على الفطرة؛ فكانت في أول الأمر آلات حادة من الحجر؛ كالتي تراها في المتاحف اليوم وكان حورس أول من اكتشف استعمال الحديد فسلح أتباعه بحراب وسهام كسيت أطرافها بهذا المعدن، فلم يمض وقت طويل حتى أثبتت هذه الأسلحة تفوقها وقيمتها الكبيرة.

وأبصر رجال حورس أن العدو في الماء، فتقدموا في حماسة ليهاجموه وكان كل رجل يحمل علاوة على حربته سلسلة طويلة من الحديد،

فكانوا يهزون حرابهم ويسددونها إلى الوحوش، ثم يكبلون ما يصيدون بالسلاسل ويجرونه إلى الشاطئ حيث يذبحونه.

ولكن بعض رجال العدو فروا إلى الشمال، فانطلق في أثرهم حورس، يطاردهم مطاردة عنيفة، ووقعت بين الطرفين معارك صغيرة، مني فيها العدو بخسارة كبيرة وخاصة عند دندرة، فقد انتظر حورس يومًا وليلة بطولهما حتى أبصر بأعدائه يتقدمون، فانقض عليهم وألحق بهم قتلاً وخسارة كبيرين.

وتبع ذلك مطاردة عنيفة، كان العدو خلالها يفر مسرعًا إلى الشمال أمام الإله الذي لا يهدأ، فلما وصلوا إلى الدلتا أسرعوا إلى ست وطلبوا أن يقاتلوا تحت لوائه؛ وكان الغضب لهذا التمرد الحادث في الجنوب يقض مضجع المارد وكان متأهبًا للسير جنوبًا ليقضي على هؤلاء الثوار القضاء المبرم؛ ولكن وصول فلول الجيش المنهزم أمام حورس قلب خطته رأسًا على عقب؛ فهذا عدوه القديم قد بعث من جديد في صورة ولده، واستقر في قلب مملكته، ويجب عليه إذن أن يلقى هذا الشاب الجريء، ويستأصل شأفته من وجه الأرض..

وأسرع عيون حورس إليه ينبئونه أن قوة كبيرة من العدو تنتظر قدومه، فأسرع بإرسال رسله في طول البلاد وعرضها يطلب من المخلصين لبيت أوزيريس أن يتجمعوا حول رايته دون إبطاء ثم ذهب ليرى أمه إيزيس في الجزيرة المسحورة قرب بوزيريس.. وقال حورس بعد أن تبادلا التحية

الحارة: "لقد حلت ساعة الحساب، وإن ست لينتظرني، والتجربة الكبرى على وشك أن تجري ولست أخشى فشلاً في معركتنا، ولكنني قد أسقط في الميدان ولهذا جئت لأقول لك إلى اللقاء"

واحتوت الأم ولدها بين ذراعيها وكم كان متين البنيان قويًا وكم كان شجاعًا وكم كانت أفكاره نبيلة.. لقد كان حقًا أباه وقد ولد مرة أخرى وطارت بها الذاكرة إلى الأمام التي كانت فيها هي وأوزيريس صغيرين معًا وقالت فجأة: "سآتي معك يا طفلي، لا تخف علي، فسأكون في أمن، ولكنني أرغب أن أرى نهاية عدوي"

وهكذا انطلق الاثنان إلى الميدان حيث يحتشد أنصار حورس وتصاعدت صيحات عالية ترحب بمقدم القائد الشاب في حرارة. ثم انحنوا إلى الأرض في خشوع حينما رأوا من تصحبه، ولم يهبوا من انحنائهم حتى منحتهم إيزيس البركة في قتالهم المقبل.

وفي بكور اليوم التالي ظهرت قوات ست، فلم يمهلها حورس بل بدأ هجومه عليها وطارت المفاجأة بصواب بعض أتباع المارد ففروا رعبًا، ولكن ست حرض البقية بالكلام والضربات على دخول المعركة التي أخذت شكلاً عنيفًا قويًا في كلا الجانبين..

وكان القتال مخيفًا وحشيًا، وكان النصر يتأرجح بين المعسكرين فآنًا يميل لهذا وآنًا يميل لذاك؛ وكان يبدو في لحظة معينة أن حورس قد ربح الجولة؛ ولكن ذلك المارد المخيف سرعان ما يندفع في غضب أهوج

وبقوة سلاحه يدفع العدو أمامه. واستمر القتال يومين كاملين، ولكن الحال ظلت كما هي، لا يمكن الحكم على نتيجتها، وعندما طلع فجر اليوم الثالث؛ واكتست السماء لونًا ورديًا. حينما نظر إليها إله الشمس التحمت القوتان في نضال مميت.

واستمرت المعركة طول النهار وبدأت أشعة الغروب تمس قمم التلال البعيدة حينما أصبح حورس وجهًا لوجه مع ست فقال: "وأخيرًا أيها القاتل.. لقد حلت ساعة الحساب وستدفع الثمن غاليًا.."

وزمجر ست "وأخيرًا.. يا ابن غريمي.. الآن سأذبحك وأفنيك أنت ومن يلوذ بك إلى الأبد"

والتقى الرمحان؛ والتحم السلاحان بوحشية أخذت تزداد شيئًا فشيئًا؛ وقد حبس الجيشان أنفاسهما ليرقبا ذلك الصراع الرهيب وقد ثبتت عيونهما على الماردين اللذين يتبارزان وسطهما وأخذ المتبارزان يصولان ويجولان تحت سيل من الضربات يوجهه كل منهما للآخر؛ ويسقط حورس فترتفع صيحات الجزع من المتفرجين. ولكنه يهب واقفًا في الحال. وقد اكتسب قوة من هذه السقطة ثم يستأنفان الهجوم؛ كي يملك أحدهما فرصة على الآخر؛ وأخيرًا بدا أن شباب حورس وقوته قد بدأ يظهران على ست الذي أخذ يتخاذل ويحل به الإعياء.

وكان إله الشمس يسرع في زورقه حتى قارب "مانو" وكان يوشك أن يدخل وادي الدوات المظلم، وكانت أشعته تنعكس على أسنة الرماح،

وقد كسا نوره القرمزي الميدان بالدماء ثم استقر على قمة جبل ونظر إلى أسفل ليشهد ذلك النضال الضخم، وفي تلك اللحظة اندفع رمح حورس الطويل إلى الأمام في سرعة تفوق البرق وأخذ ست على غرة، وشق الرمح طريقه خلال الدرع مخترقًا إياه إلى القلب، وسقط المارد وهو يئن أنة اهتزت لها الأرض، وتبعتها صيحة فرح صدرت عن رجال حورس الأوفياء.

وتقدم الشباب بهدوء إلى الأمام، وجذب رمحه من صدر غريمه وهو ينظر إلى ذلك الوجه الشرير، الملقى عند قدميه، ولكن الشفتين لم تنبسا؛ ولم تتغير الملامح؛ لأن ست كان ميتًا. ولن يسئ مرة أخرى إلى أحد...

كتاب الحكمة

كان نفر – كا – بتاح الابن الوحيد لفرعون مصر، وقد زوجه من الأميرة الجميلة آهورا، وولد لهما طفل أسمياه ميراب، هكذا سجلت أسمارهم في دار الحياة.

ورغم أن نفر – كا – بتاح كان وحيد الملك، إلا أنه لم يوجه همه إلا إلى المخطوطات القديمة، التي دونها الكتبة المصريون على أوراق البردي، وأودعوها دار الحياة، أو تلك الرموز المحفورة على جدران المعابد لقد كان ينفق أيامه جميعًا في دراسة ما كتبه الأقدمون.

وذات صباح قصد إلى المعبد ليصلي للآلهة، ولكنه أبصر ببعض النقوش فأخذ يقرؤها، ونسي أن يصلي للآلهة، بل لقد نسي الآلهة جميعًا، ونسي الكهنة وكل شيء حوله، واستغرق في القراءة لا يحس شيئًا سواها، وبينما هو في استغراقه ذاك، روعته ضحكة ساخرة عريضة، جاءته من ورائه، فنظر فإذا أحد الكهنة في ثيابه البيض وقد دمعت عيناه لكثرة ما ضحك فسأله: "لماذا تضحك مني أيها الكاهن..؟" فأجابه الكاهن.. "لأنك تنفق وقتك في قراءة ما لا يفيد، إن كنت تريد قراءة شيء ذي قيمة فإنني أدلك على مخبأ كتاب الحكمة الذي أودعه توت فنون سحره، وأسرار معرفته"

وسأله نفر –كا – بتاح أسئلة متلاحقة في لهفة وشغف شديدين فأجابه الكاهن: "لقد كتب توت ذلك الكتاب بيده، وهو يحوي كل ما بالعالم من فنون السحر، فلو قرأت صفحته الأولى لكشف عن بصرك الغطاء ورأيت كل شيء في السموات والأرض، وما في باطن الكهوف والبحار، وستفهم لغة الطير في الهواء، وستعلم ما تقوله الزواحف في جحورها، وسترى الأسماك في أعماق البحار المظلمة، ولو قرأت صفحته الثانية، لأمكنك أن ترجع إلى الدنيا في صورتك السابقة، بعد أن تموت وتصبح في عالم الأرواح، وسترى بعد ذلك الشمس مشرقة، والقمر بدرًا، والنجوم ساطعة في السماء، كل ذلك في آن واحد، بل وسترى الآلهة أنفسهم في السماء"

وعندئذ قال نفر –كا – بتاح: "بحق حياة الفرعون؛ سيصبح ذلك الكتاب ملكي، ولك أن تطلب مني ما تريد، وعلي أن أجيب كل ما تطلب" فقال الكاهن: "أنفق على جنازتي؛ واستوثق من أنني أدفن كأحد الأغنياء وحولي كهنة يرتلون، ونسوة يبكين وتقدم القرابين للآلهة من أجلي، ويراق الخمر المقدس؛ وذلك حتى تستقر روحي في سلام في حقول آلوا؛ يجب أن ينفق على جنازتي مائة قطعة من الفضة".

وسرعان ما أرسل نفر –كا – بتاح رسولاً ليأتيه بالنقود، فلما عاد الرسول سلم الكاهن في يديه مائة قطعة من الفضة فلما تسلمها الكاهن قال لنفر –كا – بتاح:

إن الكتاب في قفط في وسط النهر.

وفي وسط النهر صندوق من الحديد.

وفي صندوق الحديد صندوق من البرنز.

وفي صندوق البرنز صندوق من خشب الصندل.

وفي صندوق خشب الصندل صندوق من الأبنوس والعاج.

وفي صندوق العاج والأبنوس صندوق من الفضة.

وفي صندوق الفضة صندوق من ذهب.

وفي صندوق الذهب تجد كتاب الحكمة الذي كتبه توت ومن حول الصندوق الحديدي تسعى أفاع وعقارب وأنواع شتى من الزواحف، وفوق كل ذلك أفعى مهولة لا يستطيع أن يقتلها إنسان. لقد رصدت كل هذه الزواحف لحراسة كتاب الحكمة، الذي كتبه توت بيديه.

ولم يكد الكاهن يفرغ من حديثه، حتى خرج نفر –كا – بتاح من المعبد، لأن فرحه كان كبيرًا لدرجة أنه لم يدر أين هو؟ وأسرع الخطى إلى زوجته آهورا ليخبرها بنبأ الكتاب وليخطرها بأنه ينبغي له أن يرحل إلى قفط لساعته، ليحصل على هذا الكتاب الفريد.

ولكن آهورا كانت حزينة جدًا لهذا النبأ، وقالت له "اعدل عن هذه الرحلة، لأن المتاعب والأحزان تنتظرك في أرض الجنوب" قالت ذلك

ووضعت يدها على ساعد نفر –كا – بتاح، كأنما ينبغي عليها أن تنقذه من الحزن الذي ينتظره، ولكنه لم يكن ممن يتراجعون عن عزمهم بسهولة، فانطلق من أمامها وذهب توًا إلى أبيه الفرعون. وقص على أبيه الفرعون كل ما علم وقال له: "أعطني السفينة الملكية يا أبت، حتى يتسنى لي أن أذهب إلى الجنوب، وأحصل على كتاب الحكمة، وسيكون معي زوجتي آهورا وولدي ميراب" فأصدر الفرعون أوامره فأعد اليخت الملكي، واستقبله نفر – كا – بتاح، وزوجته آهورا وولدهما ميراب، وصعدت السفينة في النهر حتى وصلت إلى قفط، فلما وصلوا إليها خف لاستقبالهم على الشاطئ كهنة إيزيس ورئيسهم في قفط، ليرحبوا بالأمير الشاب وزوجته آهورا وولدهما ميراب، وانطلقوا جميعًا في موكب كبير إلى معبد الربة وتقرب نفر –كا – بتاح إلى الربة بذبح ثور وأوزة، وأراق زقاق النبيذ على المذبح، تكريمًا لإيزيس وولدها حورس، ثم أقام كهنة إيزيس وزوجاتهم احتفالاً كبيرًا دام أربعة أيام تكريمًا لنفر –كا – بتاح وزوجته آهورا.

وفي صبيحة اليوم الخامس، دعا نفر –كا – بتاح إليه أحد كهنة إيزيس، الذين حذقوا فنون السحر جميعًا، وعرفوا أسرار الآلهة، ثم عكفوا على صنع صندوق سحري كالغواصة؛ وأودعوه تماثيل رجال ومؤنًا ثم تليت تعويذة سحرية على المخلوقات الجديدة، فدبت فيها الحياة، وتنفس الرجال، وتحركوا داخل الغواصة، ثم غمر نفر – كا – بتاح الغواصة في النهر وقال: "يا خدام.. يا خدام افعلوا ما آمركم به" ثم حمل السفينة الملكية بالرمال وأبحر على النهر وحيدًا، بينما جلست آهورا على شاطئ

النهر في قفط، تترقب وتنتظر، لأنها كانت تحس أن المتاعب والأحزان ستعقب هذه الرحلة إلى أرض الجنوب.

وغاص الرجال المسحورون بغواصتهم أيامًا ثلاثة بلياليها في النهر، فلما توقفوا، توقفت السفينة الملكية عن السير، وأدرك نفر – كا – بتاح أنه وصل إلى المكان الذي فيه كتاب الحكمة.

وألقى نفر – كا – بتاح بحمولة السفينة من الرمال في النهر صانعًا سدين، وبين السدين كان فراغ طوله خمسون ذراعًا وعرضه خمسون ذراعًا، وفي وسط ذلك الفراغ كان الصندوق ملقى، وإلى جواره التفت أفعى مهولة على نفسها، تلك الأفعى التي قال الكاهن أنها لا يمكن أن يقتلها إنسان، وأحاط بالصندوق من كل جانب أفاع وعقارب، وأنواع شتى من الزواحف.

ووقف نفر – كا – بتاح في مقدمة السفينة الملكية، وصاح عبر المياه في الأفاعي والعقارب وشتى الزواحف صيحة عالية مرعبة، وتلا عليها تعويذة سحرية، فلما انتهت التعويذة جمدت الأفاعي والعقارب وشتى الزواحف في أماكنها، لأنها سحرت بكلمات نفر – كا – بتاح، فلم تستطع حراكًا، وتحرك نفر – كا – بتاح حتى حاذى حافة الفراغ، ثم نزل من سفينته، وسار بين الأفاعي والعقارب وشتى الزواحف، وكانت كلها مفتحة العيون، تنظر إليه وتراه، ولكنها لا تستطيع الحركة فقد أثرت التعويذة عليها.

وأصبح نفر –كا – بتاح وجهًا لوجه مع الأفعى التي لا يستطيع أن يقتلها إنسان ورفعت الأفعى رأسها وتراجعت قليلاً إلى الوراء – استعدادًا للمعركة القادمة، وهجم عليها نفر –كا – بتاح وفصل رأسها عن الجسد ولكن سرعان ما التصق الجسم بالرأس مرة أخرى، وعادت الأفعى التي لا يمكن أن يقتلها إنسان إلى الحياة مرة أخرى واستعدت لمواصلة النزال، وهجم عليها نفر –كا – بتاح مرة ثانية؛ وضربها ضربة قوية؛ أطاحت بالرأس بعيدًا عن الجسد؛ ولكن سرعان ما انضم الجسد والرأس إلى بعضهما البعض وعادت الأفعى التي لا يمكن أن يقتلها إنسان إلى الحياة مرة أخرى، واستعدت لاستئناف الصراع، وأدرك نفر –كا – بتاح أن الأفعى خالدة، ولا يمكن ذبحها والقضاء عليها إلا بالحيلة، فعاود الهجوم عليها للمرة الثالثة، وشطرها نصفين، وذر الرمال على مكان القطع، حتى إذا ما حاول النصفان الاتصال ثانية، لم يتمكنا من ذلك لوجود رمل يفصل بينهما، وهكذا ارتمت الأفعى التي لا يستطيع أن يقتلها إنسان، عديمة الحيلة بين يديه.

ثم تقدم نفر –كا – بتاح إلى الصندوق الكبير حيث هو ملقى في الفراغ وسط المجرى وكانت الأفاعي والعقارب وشتى الزواحف ترقبه، ولكنها لا تستطيع منعه، وفتح الصندوق الحديدي فوجد صندوقًا برونزيًا، وفي الصندوق البرونزي وجد صندوقًا من خشب الصندل. وفي صندوق خشب الصندل وجد صندوقًا من الأبنوس والعاج، وفي الصندوق الأخير وجد صندوقًا من الفضة، وفي صندوق الفضة وجد صندوقًا من الذهب، وفي الصندوق الذهبي وجد كتاب الحكمة الذي كتبه توت بيديه..

وفتح نفر –كا – بتاح الكتاب وقرأ الصفحة الأولى فكشف عن بصره الغطاء، أطلع على ما في السموات والأرض، وما في باطن الكهوف والبحار. وفهم منطق الطير في الهواء، وعلم بما تقوله الزواحف في جحورها، ورأى الأسماك في أعماق البحار المظلمة. وقرأ الصفحة الثانية، فرأى الشمس مشرقة، والقمر بدرًا؛ والنجوم ساطعة في السماء؛ وكل ذلك في آن واحد، بل ورأى الآلهة أنفسهم في السماء.

وعندئذ أدرك نفر –كا – بتاح أن ما قاله الكاهن كان صحيحًا وذكر أن زوجته آهورا تنتظره على الشاطئ عند قفط، فتلا تعويذة سحرية على الخدام الذين صنعهم قائلاً: "يا خدام يا خدام نفذوا ما آمركم به؛ وارجعوا بي إلى المكان الذي جئت منه".

وجد الرجال المسحورون ليلاً ونهارًا في الرحيل؛ حتى وصلوا إلى قفط حيث تجلت آهورا على ضفة النهر، وكانت قد صامت عن الطعام والشراب منذ رحل عنها نفر – كا – بتاح لأنها كانت تترقب الحزن والمتاعب التي توشك أن تنزل بهم جميعًا.

ولكنها حينما رأت نفر – كا – بتاح عائدًا إليهم في سفينته الملكية، رقص قلبها فرحًا وأقبل عليها نفر –كا – بتاح فوضع بين يديها كتاب الحكمة، وطلب منها أن تقرأ فيه، فعندما قرأت الصفحة الأولى؛ كشف عن بصرها الغطاء، وأطلعت على ما في السماوات والأرض، وما

في باطن الكهوف والبحار؛ وفهمت منطق الطير في الهواء؛ وعلمت بما تقوله الزواحف في جحورها، ورأت الأسماك في أعماق البحار المظلمة.

ولما قرأت الصفحة الثانية، رأت الشمس مشرقة، والقمر بدرًا؛ والنجوم ساطعة في السماء، كل ذلك في آن واحد، بل ورأت الآلهة أنفسهم في السماء.

ودعا نفر –كا – بتاح بقطعة نظيفة من البردي، وكوب من الجعة ثم كتب كل التعاويذ التي يحتوي عليها كتاب الحكمة، ثم تناول كوب الجعة، وغسل فيه رقعة البردي حتى انمحت الكتابة تمامًا وعادت ورقة البردي نظيفة كما كانت، ثم جرع الكوب حتى الثمالة، وهكذا حفظ كل التعاويذ التي كان الكتاب يحتويها عن ظهر قلب، وهذه هي الطريقة التي يتبعها كبار السحرة.

ثم ذهب نفر –كا – بتاح وآهورا إلى معبد إيزيس؛ وقدما القرابين إليها وإلى ولدها حورس وأقاما احتفالاً كبيرًا، وفي اليوم التالي صعدا إلى ظهر السفينة الملكية، وأبحرا مسرورين على النهر متجهين صوب الشمال تدفع شراعهما ريح رخاء.

ولكن انتظر.. لقد اكتشف توت ضياع كتابه الحبيب "كتاب الحكمة" فثار غاضبًا كالقط البري المتوحش الذي يقطن الجنوب، وأسرع إلى رع كبير الآلهة، وقص عليه القصة قائلاً:

"إن نفر – كا – بتاح قد عثر على صندوقي المسحور وفتحه وسرق كتابي.. حتى كتاب الحكمة يسرقونه؟ لقد ذبح الحراس الذين يحيطون بالصندوق، والأفعى التي لا يستطيع قتلها إنسان قد خلفها عديمة الحيلة، فانتقم لي يا رع من نفر –كا – بتاج بن فرعون"

وأجاب رع ذو الجلال قائلاً: "خذه هو وزوجته وابنهما، وافعل بهم جميعًا ما تشاء".

وهكذا فإن المتاعب والأحزان التي تنبأت بها آهورا كانت على وشك الوقوع، لأن توت قد حصل على إذن من رع، بأن يجري قضاءه فيمن سرق كتاب الحكمة.

وبينما السفينة الملكية مبحرة شمالاً في هدوء ورخاء، خرج الصبي ميراب من تحت المظلة، وتقدم حتى بلغ حافة السفينة، وأخذ يحدق في الماء فاجتذبته قوة رع، فسقط في الماء وغرق لساعته وعندما سقط في الماء صرخ الملاحون في السفينة، وصاح المارة على الشاطئ، ولكنهم لم يستطيعوا إنقاذه جميعًا...

وخرج نفر – كا – بتاح من القمرة، وقرأ تعويذة سحرية على الماء، فطفت جثة ميراب على السطح فانتشلوها ومددوها على ظهر السفينة، وقرأ نفر – كا – بتاح تعويذة أخرى بلغ من قوتها أن الطفل الميت تكلم، وأخبر نفر –كا – بتاح بكل ما حدث بين الآلهة وأن توت

يعمل على الانتقام، وأن رع قد منحه قوته ليستخدمها ضد سارق كتاب الحكمة.

وأصدر نفر – كا – بتاح أوامره فاتجهت السفينة إلى قفط مرة ثانية حتى يدفن الصبي ميراب بالاحتفال اللائق بابن أحد الأمراء، ولما انتهت مراسيم الاحتفال بدفنه أبحرت السفينة مرة أخرى صوب أرض الشمال وقد فقدت الرحلة بهجتها بعد أن مات ميراب وقد أثقلت الهموم قلب آهورا انتظارًا للأحزان والمتاعب المقبلة، لأن انتقام توت لم ينته بعد..

ووصلت السفينة إلى المكان الذي غرق فيه ميراب، فخرجت آهورا من تحت المظلة، وتقدمت إلى حافة السفينة وأطلت في المياه فاجتذبتها قوة رع فسقطت في الماء، وغرقت لساعتها؛ وعندما سقطت أبصر بها ملاحو السفينة، وأبصر بها المارة على الضفة؛ ولكنهم جميعًا لم يستطيعوا إنقاذها.

وخرج نفر – كا – بتاح من القمرة وتلا تعويذة سحرية على الماء، فطفت جثة آهورا على سطح الماء، فانتشلها الملاحون، ومددوها على سطح السفينة؛ وتلا نفر – كا – بتاح تعويذة أخرى بلغ من قوتها أن الجسد الميت تكلم، فأخبره بما دار بين الآلهة، وبأن توت لا يزال يجري وراء الانتقام، لأن رع قد منحه قوته ليستخدمها ضد سارق كتاب الحكمة.

وأصدر نفر –كا – بتاح أوامره فعادت السفينة أدراجها إلى قفط حتى تدفن آهورا بالاحتفال اللائق بابنة ملك، ولما انتهت مراسيم الدفن؛ أبحرت السفينة الملكية مرة أخرى صوب أرض الشمال؛ ويا لها من رحلة مقبضة حزينة هذه المرة... فقد ماتت آهورا ومات ميراب، ومع ذلك فلا يزال توت يريد الانتقام.

ووصلت السفينة إلى المكان الذي غرق فيه ميراب وغرقت فيه آهورا، فأحس نفر –كا – بتاح بأن قوة رع تجذبه، وكان متأكدًا من أنها ستتغلب عليه رغم مقاومته لها، فتناول قطعة من نسيج الكتان الملكي؛ جيدة متينة؛ فصنع منها نطاقًا، وربط بها كتاب الحكمة إلى صدره لأنه صمم على ألا يحصل توت على كتابه مرة أخرى.

وعندئذ جذبته القوة الخفية بشدة هذه المرة؛ فوجد نفسه يخرج من تحت المظلة، ثم ألقى بنفسه في النهر؛ فغرق لساعته؛ وعندما سقط في النهر أبصره الملاحون في السفينة والمارة على الضفة ولكنهم لم يستطيعوا إنقاذه جميعًا، وعندما بحثوا عن جثته لم يعثروا عليها.

وهكذا أبحرت السفينة الملكية شمالاً حتى وصلت إلى أرض الشمال وألقت مراسيها في ممفيس، وذهب ربانها إلى الفرعون وأخبره بكل ما حدث.. ولبس الملك ثياب الحداد، وكذلك رجال البلاط؛ والكاهن الأكبر وسائر كهنة ممفيس، ورجال الجيش لبسوا جميعًا ثياب الحداد؛ ثم سار الجمع في موكب حزين إلى المرفأ؛ حيث ترسو السفينة الملكية، وعندما

وصلوا إليها أبصروا بجثة نفر – كا – بتاح طافية بقر السفينة، بجوار المجاديف الكبرى، ولقد حدثت هذه المعجزة نتيجة لقوة نفر – كا – بتاح السحرية، فقد ظل ساحرًا عظيمًا حتى في مماته؛ لأنه قد أذاب التعاويذ في كوب الجعة وشربها.

وانتشلت الجثة فأبصروا بكتاب الحكمة مربوطًا إلى صدره، بنطاق من الكتان وأصدر الملك أمره أن يدفن نفر – كا – بتاح بالاحتفال اللائق بابن ملك، وأن يدفن معه كتاب الحكمة، وهكذا تحقق انتقام توت... ولكن كتاب الحكمة ظل مع نفر – كا – بتاح.

الخنزير الأسود

إنني أعلم لماذا أطلق اسم حورس على مدينة بي؛ وسأقص عليكم نبأها: كان العداء والكراهية مستحكمين بين حورس إله الخصب؛ وست إله الشر الذي ذبح أباه أوزيريس وشرد أمه إيزيس، وكان بينهما عراك وصراع، وكلما تقدم القتال ازداد شدة وعنفًا؛ ولم ينحز النصر إلى جانب من الجانبين؛ رغم أن الآلهة كانوا يؤيدون حورس.

وكان ست شديد المكر والدهاء، يحاول التغلب على خصمه بالمكر والخديعة، لا بالشجاعة والمهارة في القتال؛ وكانت لديه القدرة على التشكل بأي شكل يريده؛ فلا يستطيع معرفته إنسان ولا إله؛ هذه قدرة ست.. أما قدرة حورس فكانت من نوع آخر لأن الحق والعدل ينتميان لحورس، أم الغش والخديعة فلا يمتان إليه بصلة أو سبب؛ وكان من خصائص حورس أن من نظر في عينيه الزرقاوين الصافيتين، يرى المستقبل منعكسًا على حدقتيهما. ولذلك كان البشر والآلهة على السواء، يتجهون إلى حورس حينما يريدون علم المستقبل المغيب.

وقد وصل إلى علم ست أن رع سيتشاور مع حورس وهذه – فيما يعتقد – فرصته المواتية ليصيب مقتلاً من حورس، ولذلك تشكل في صورة خنزير أسود، فكان منظره رهيبًا حقًا، وقد كشر عن أنيابه الطويلة الحادة

واكتسى بلون السحاب المرعد، كانت نظرته متوحشة خبيثة تلقي الرعب في قلوب الناس.

وأقبل رع ذو الجلالة على حفيده حورس وتحدث إليه قائلاً "دعني أنظر في عينيك الصافيتين لأرى ما سيجيء به المستقبل" وحدق في عيني حورس وكان لونهما كلون المياه الخضراء المنبسطة عندما تنعكس عليها سماء الصيف الصافية؛ وبينما هو ينظر في عيني حورس إذا بالخنزير الأسود يمر.

ولم يعرف رع أن ذلك الخنزير الأسود؛ لم يكن إلا ذلك الإله الشرير فصاح في حورس "أنظر إلى ذلك الخنزير الأسود.. إنني لم أر خنزيرًا بهذه الضخامة، أو بهذه الوحشية" ونظر حورس ولكنه لم يعرف ست بهذه الصورة الغريبة، وظن أنه خنزير بري من الخنازير التي تقطن غابات الشمال، وهكذا ظل بلا حرس ولا حماية من عدوه الغادر...!

وعندئذ وجه ست قذفة من النار إلى عين حورس، فصرخ حورس من شدة الألم الذي أحدثته النيران؛ فصاح غاضبًا "إنه ست/ وقد قذفني في عيني بالنيران" ولكن ست سرعان ما اختفى؛ ولم ير الخنزير الأسود مرة أخرى.

وحلت لعنة رع بالخنزير بسبب ست فقال: "ليكن الخنزير قربانًا لحورس"؛ وإلى يومنا هذا يضحي الناس بالخنزير إذا كان القمر بدرًا؛ لأن ست عدو حورس وقاتل أوزيريس اتخذ صورته ليصيب الإله ذا العيون

الزرق ولهذا السبب يعتبر رعاة الخنازير في مصر منبوذين ملوثين؛ محرمًا عليهم دخول المعابد وتقديم القرابين للآلهة، ولا يتزوج أبناؤهم أو بناتهم من أبناء الشعب الأطهار.

ولما شفيت عينا حورس، منحه رع مدينة بي؛ وجعل له أخوين مقدسين في مدينة بي؛ وأخوين مقدسين في مدينة نخن؛ حتى يكون له قضاة على الدوام، وعند ذلك طابت نفس حورس وعاوده فرحه القديم وعندما فرح حورس اخضرت الأرض؛ وأخرجت طيباتها؛ وانقشعت السحب الداكنة؛ وطابت الحياة..

اسم رع

رع ذو الجلال، هو الذي خلق السماوات والأرض، وخلق الإله والناس أجمعين، وخلق النبات والحيوان، وخلق النار الموقدة؛ وخلق الروح ونفخها في الأحياء؛ ثم استوى على العرش وتولى بنفسه حكم العالم؛ آلهته وأحيائه على السواء.

وطالما أبصرت إيزيس مظاهر قوته وجبروته؛ تلك القدرة التي تطوي الأرض والسماء، والتي ينحني أمامها الآلهة والناس؛ وطالما تمنت في قرارة نفسها أن توهب تلك القدرة حتى تصبح أعظم من الآلهة، وتسيطر على الناس أجمعين.

ولم تكن هناك طريقة واحدة للحصول على هذه القوة، فإن رع إنما يحكم العالم بقوة اسمه، ولا يعرف هذا الاسم الغامض سواه، ومن يستطيع أن يعرف سر ذلك الاسم سواء كان بشرًا أو إلهًا، يستطيع السيطرة على العالم وقد يستطيع السيطرة على رع نفسه؛ وكان رع يحتفظ بسر اسمه لنفسه؛ ولا يبوح به لأحد محافظة منه على قوته وسطوته.

وكل صباح كان رع يخرج في موكبه الخالد من الأفق الشرقي عابرًا السماء، وفي كل مساء كان موكبه يختفي في طيات الأفق الغربي حيث ينير ظلمات العالم السفلي، عالم الدوات وقد ظل رع يقوم بهذه الرحلة ملايين

السنين حتى دبت إليه الشيخوخة وتقدمت به السن فكان لا يستطيع أن يضم فكيه، أو يقفل فمه، فكان لعابه يسيل على الأرض.

وتناولت إيزيس حفنة من التراب؛ ومزجتها بلعاب رع؛ وصنعت من ذلك قطعة من الطين جعلتها على صورة ثعبان مجنح؛ من تلك الثعابين المقدسة التي تتوج رءوس الآلهة، وتزين تيجان ملوك مصر؛ ولم تقرأ على ذلك الثعبان تعاويذها ورقاها، لأن الثعبان كانت الحياة تجري فيه من لعاب رع نفسه ثم أخذت الثعبان وأخفته على طريق موكب رع؛ ذلك الطريق الذي يسلكه كل يوم في رحلته من الأفق الشرقي إلى الأفق الغربي عبر السماء...

وفي الصباح استأنف موكب رع رحلته الخالدة، متجهًا إلى الأفق الغربي حيث مدخل عالم الظلام السفلي، لينير الظلام الدامس وعندما مر رع بالأفعى؛ أنشبت فيه أنيابها؛ وأفرغت فيه من السم نارًا اشتعل لها جسده الذابل، وصرخ رع فتجاوبت السموات صرخته، ورجعها الأفق الشرقي والأفق الغربي، وانحدرت الصرخة المقدسة إلى الأرض حتى سمعها الآلهة والناس أجمعون. وقال له الآلهة الذين يتبعون موكبه: "ماذا جرى لك؟ ماذا جرى لك؟" ولكن رع لم يجب بكلمة واحدة، وأخذت أطرافه المقدسة ترتعد ألمًا؛ وأسنانه تصطك؛ ولكنه لم يفه بكلمة، لأن السم سرى في جسده الإلهي كما تسري مياه النيل في الأرض الجافة في زمن الفيضان..

وعندما هدأ قليلاً دعا إليه من يتبع موكبه من الآلهة وقال:

"تعالوا إلي... أنتم يا من خلقتكم بقدرتي، لقد أوذيت أذى بالغًا، أحسه ولكنني لا أعلم مأتاه ولم تخلقه يداي هاتان، ولا أعلم من أوجده. أبدًا لم أحس بمثل هذا الألم من قبل أبدًا، وليس هناك إصابة أبلغ من هذه أبدًا؛ من الذي يستطيع إيذائي؟.. إن أحدًا لا يعرف سر اسمي، ذلك السم الذي منحنيه أبي وأمي؛ وأودعاني إياه بحيث لا يؤثر فيه سحر؛ ولا يعرفه مخلوق. لقد خرجت لألقي نظرة على العالم الذي خلقته؛ وقد مررت على الأرض حينما لدغني شيء لا أعرفه؛ أهي نار أم جليد، إنني أحترق، إنني أرتعش، إن أطرافي كلها ترتعد، نادوا لي أطفال الآلهة الذين بيديهم الشفاء، أولئك الذين يتقنون فنون السحر، وتصل قوتهم إلى السماء"

وعندئذ أقبل الآلهة وهم يبكون ويصرخون ويولولون، لأن قدرتهم كانت عديمة الجدوى حيال ذلك الثعبان؛ لأن المادة المقدسة دخلت جسده؛ وأقبلت مع الآلهة إيزيس الشافية سيدة السحر التي في فمها ترياق الحياة، التي تطرد كلماتها المرض، وتوقظ الموتى.

وقد تحدثت إيزيس إلى رع قائلة: "ما هذا؟ ماذا جرى أيها الأب المقدس؟ هل لدغك ثعبان شرير؟ هل رفعت مخلوقاتك رأسها ضدك؟ انظر.. إن سحري سيطرد ذلك السم، إنني سأطرده ببركتك؟".

وعند ذلك أجاب رع: "لقد مررت عبر الممر المألوف؛ ومررت على الأرض عندما لدغني ثعبان لم أره؛ وأنشب أنيابه في جسمي؛ هل كان سمه نارًا أم جليدًا؟ إنني أبرد من الجليد، إنني أشد حرارة من النار، إن

أطرافي لترتعد، والعرق يتصبب على جبيني كما يتصبب على جباه البشر تحت حرارة الشمس المشرقة في الصيف القاسي"

وتكلمت إيزيس مرة أخرى؛ وكان صوتها في هذه المرة منخفضًا لطيفًا: "قل لي سر اسمك أيها الأب القوي.. اسمك الحقيقي.. اسمك السري الغامض؛ لأن الحياة كتبت لمن ينادي باسمه فقط" وعندئذ أجاب رع:

"أنا خالق السموات والأرض، أنا مرسي الجبال، أنا خالق البحار، أنا خالق أسرار الأفقين، أنا النور والظلام، أنا خالق الساعات والأيام، أنا فاتح الأعياد، أنا مجري الأنهار، أنا خالق اللهب، أنا خبير في الصباح ورع عند الظهيرة، وآتمو عندما يحل المساء"

ولكن إيزيس قابلت تلك الكلمات كلها بالصمت والهدوء؛ ولم تتفوه بكلمة ما؛ لأنها كانت تعلم أن رع قال لها الأسماء التي يعرفها الجميع؛ أما اسمه الحقيقي اسمه السري المقدس؛ فقد كان لا يزال مطويًا في صدره.

وسرى السم في جسده؛ وأخذ يجري في عروقه كألسنة اللهب الممتدة.

وبعد فترة من الصمت؛ تكلمت إيزيس مرة أخرى: "أريد اسمك. إن اسمك الحقيقي، اسمك السري لم يكن بين تلك الأسماء.. قل لي على

اسمك حتى أطرد السم خارج جسدك؛ لأنني أشفي بسحري من أعرف اسمه الحقيقي".

وأخذ السم ينتشر في جسده؛ فيحس بالنار تسري في أعضائه وأصبح قارب الشمس فارغًا؛ وكذلك عرش الإله صار خواء؛ لأن رع خبأ نفسه من أتباعه والذين خلقهم بيديه!!

وعندما انتقل الاسم من قلب رع إلى قلب إيزيس، تكلمت الربة إلى رع قائلة عاهدني يا رع على أن تعطي عينيك لحورس وما عينا رع إلا الشمس والقمر ويدعوهما الناس بعيني حورس حتى اليوم.

وهكذا انتقل اسم رع من قلبه فأصبح ملكًا لإيزيس؛ وعندئذ صاحت بكلمة السر فأطاع السم، وشفي رع بقوة اسمه.

وإيزيس العظيمة سيدة الآلهة، سيدة السحر، إن في يديها الشفاء، وفي فمها ترياق الحياة، وبكلماتها ينمحي الألم، وبقوتها تعيد الحياة إلى من مات.

جعة هليوبوليس

كان رع يحكم الوجهين؛ وكان ثاني ملوك مصر، وقد شمل السلام البلاد في عهده، وقد زادت المحاصيل وعمت البركة والخير كل الأقاليم حتى أن الناس يتحدثون إلى اليوم عن البركة التي حلت بالبلاد في عهد رع.

ولقد خلق رع نفسه بقدرته، ثم خلق السموات والأرض، ثم خلق الآلهة والبشر، ثم حكم أولئك جميعًا، ولقد ظل آلاف السنين يحكم ما خلق؛ حتى دبت الشيخوخة إلى جسده الإلهي؛ ولم يعد الناس يخافونه كما كانوا في الماضي؛ بل وكانوا يضحكون ويتغامزون إذا مر بهم قائلين: "انظروا إلى رع.. إنه أصبح شيخًا، إن عظامه أصبحت ترن كالفضة، وقد تصلب لحمه فأصبح كالذهب، وأصبح شعره في زرقة اللازورد".

وأخذ رع يستشعر المهانة كلما استمع إلى همسهم الخبيث، أو ضحكهم المستهتر؛ وذات يوم دعا إليه الآلهة الذين يحفون بموكبه وصاح فيهم:

"ائتوني بابنتي، وقرة عيني، ونادوا الآلهة شو؛ وتفنوت؛ وجب؛ ونوت؛ والإله العظيم نون؛ الذي يسكن نهر المجرة وسط السماء؛ نفذوا أوامري سرًا حتى لا يسمع الناس أو يروا شيئًا مما يحدث وحتى لا يخافوا فيختبئوا".

وفي السر ذهب الرسل؛ وانطلقوا في هدوء يبلغون الرسالة إلى الأرباب، وقد أقبل الأرباب في الخفاء.. لم يشعر بانتقالهم أحد حتى وصلوا إلى قصر رع العظيم في مخبئه السري؛ فلم يحس الناس بكل ما حدث؛ فاستمروا في تغامزهم وضحكهم، وهم لا يعلمون بالعقاب الرادع الذي يوشك أن يحل بهم.

وحف بالعرش الأرباب والربات المقبلون من شتى الجهات، وانحنوا في خشوع أمام رع حتى مست جباههم الأرض قائلين: "مرنا نطعك أيها الإله العظيم".

وعندئذ قال رع لنون العظيم؛ الذي يقطن نهر المجرة وسط المساء "أيها الإله العظيم يا أكبر الآلهة سنًا؛ يا من نسل منك الجميع.. انظر إلى الناس الذين خلقتهم من عدم. انظر كيف يسخرون مني؛ ويهزؤون بي؛ ماذا أصنع بهم..؟ قل لي؟ إنني قررت ألا أذبحهم قبل أن أستشيرك في ذلك وأسمع رأيك"؟

وأجاب الإله العظيم نون الذي يقطن نهر المجرة وسط السماء: "رع.. يا بني.. يا أكبر الآلهة يا أقوى الملوك؛ أسرع بموكبك الخالد؛ وليحل غضبك على العالم؛ ارسل إليهم ابنتك وقرة عينك سمخت؛ حتى لا تدع منهم حيًا"

وتكلم رع ثانية فقال: "انظر.. إنهم سيفرون إلى الصحاري والجبال؛ ويخبئون أنفسهم إذا شعروا بالخوف نتيجة سخريتهم وضحكهم؛ ولن يستطع أحد أن يجدهم في الصحاري والجبال".

وقالت الأرباب والربات مجتمعين، وقد أحنوا جباههم أمام رع: "أرسل عليهم ابنتك وقرة عينك.. أرسل عليهم سمخت".

وعندئذ أقبلت ابنة رع، التي يسمونها سمخت، لبؤة ممفيس ويسمونها هاتور، أشرس الربات على الإطلاق، تنقض على فريستها كالأسد.. التذبيح مسرتها المثلى، ومتعتها في عب الدماء.

وانطلقت سمخت استجابة لرغبة أبيها، إلى أرض الشمال وأرض الجنوب، لتذبح الثائرين على أبيها رع، فأحالت ثورتهم إلى سخرية وأضحوكة للعالمين، ولقد ذبحتهم جميعًا في أرض تامري وكذلك على الجبال المستلقية شرق النهر العظيم وغربه، وأخذت تضرب هنا وهناك، فتذبح كل من يعترض طريقها، وأمامها تفر جموع الخارجين والثائرين.

وأطل رع من عليائه على الأرض، فراعته تلك الأنهار من الدماء فصاح بابنته: "كفى.. كفى يا ابنتي.. وليحل السلام يا هاتور. ألم تنته بعد مما أمرتك به؟"

فضحكت هاتور كما تضحك اللبؤة، وهي تعب من دم الفريسة وصاحت: "بحق حياتك يا رع.. إنني أنفذ قضاءك في الناس، وقلبي بذلك سعيد".

وجرى النهر أحمر قانيًا عدة أيام، والربة المتوحشة تعب من دماء الناس، وقد تخضبت أقدامها بالدماء، وهي تسير في أرض مصر حتى وصلت إلى هنن – تي – سوت..

وأطل رع من عليائه على الأرض مرة أخرى فامتلأ قلبه شفقة ورثاء للبشر، الذين ابتدعتهم يداه، رغم أنهم سخروا منه وتضاحكوا عليه؛ ولكن أحدًا لا يستطيع أن يوقف الربة المتعطشة للدماء عند حد، حتى رع نفسه، ولن تتوقف عن تذبيح الناس حتى تروي غلتها، فالآلهة والناس لا يستطيعون لها دفعًا، ولن تتوقف إلا بالخديعة والدهاء.

وأصدر رع أوامره قائلاً: "إلي بالرسل الخفاف الذين يسرعون كالريح العاصف" فلما أن حضروا إليه قال لهم: "اذهبوا إلى جزيرة فيلة، حيث مياه النهر العاتي تتكسر على صخور الشلال في عنف وهدير، وأحضروا الثمرة التي تجلب النوم، ثم قدموها لرع، وكانت الثمرة حمراء قرمزية، وكان عصيرها في لون دم البشر، وحملها الرسل إلى هليوبوليس مدينة رع.

وجرش نسوة هليوبوليس الشعير وصنعوا منه الجعة، ومزجوا عصير الثمرة المنومة بالجعة، فأصبح لون الجعة كالدم، وصنعوا منها سبعة آلاف

مكيال، وخمروها في عجلة، لأن الليل يوشك أن ينقضي، وقد لاحت طلائع الفجر.

وأقبل رع، وفي موكبه الأرباب والربات، ليفحصوا الجعة المصنوعة، وقد وجدها رع في لون دم الإنسان، فقال: "إنها جعة جيدة، بهذا سأحمي البشر من الفناء".

وعندما أشرق الفجر أصدر أمره: "احملوا هذه الجعة إلى حيث المذبوحين من الرجال والنساء؛ وصبوها في الحقول قبل أن ينقشع الظلام".

وصبوا الجعة على الحقول فغمرتها جميعًا؛ حتى بلغ مستواها ارتفاع أربع نخلات باسقات، وكان لونها كالدم النجيع.

وفي الصباح أقبلت سخمت المتوحشة وهي على أتم استعداد لتعمل الذبح والتقتيل، وبينما هي متقدمة أخذت تتلفت هنا وهناك لعلها أن ترى فريسة تفتتح بها يومها، ولكنها لم تر شيئًا، وأبصرت بالحقول التي تغمرها الجعة بلون الدماء، فكشرت عن أنيابها وضحكت كما تزأر اللبؤة الشرسة، وقد ظنت أن تلك الدماء الجارية من صنعها، وأنها قد سفكتها جميعًا، فانتشت طربًا، ومالت على الجعة وأخذت تشرب! أخذت تشرب وتشرب..! وكلما أمعنت في الشرب أمعنت في الضحك؛ لأن النشوة لعبت برأسها؛ وبدأ مفعول الثمرة يجلب النوم إليها، فلم تعد تستطيع التذبيح والتقتيل.

وناداها رع إليه قائلاً: "تعالي يا جميلتي" فأقبلت إليه سكرى تتعثر، وهكذا أنقذ رع البشر من الفناء، وحماهم من غضب الربة المتوحشة!!

بلاد الليل والظلام الدامس

عندما خلق العالم، خلق به نهران، نهر مصر ونهر السماء، وكان النيل – نهر مصر – عظيمًا، كان ينبع من الجنوب من خلف الشلال، ويفيض على أرض مصر، فيجلب الخير والبركة والمحاصيل إلى أرض تا – مري، وكان نهر السماء عظيمًا جبارًا يجري عبر السماء وخلال الدوات، عالم الليل والظلام الدامس، وعلى هذا النهر كان قارب رع يسير واسمه قارب ملايين السنين، ولكن الناس يدعونه قارب مانزت إذا كان الفجر، عندما يشرق رع في جلال على الأفق الشرقي للسماء، ويدعونه قارب مسيكتت إذا كان المساء، عندما ينحدر رع في جلال إلى ظلمات الدوات، حيث يشمخ جبل مانو بقمته إلى السماء الغربية، فعلى الأفق الغربي يبدو للنظار جبل مانو، وعلى الأفق الشرقي يبدو جبل باخو، وكلاهما ضخم رهيب، فأصلهما راس على الأرض، وعلى قمتيهما تستقر السماء.

وعلى أقصى قمة جبل باخو يعيش ثعبان طوله ثلاثون ذراعًا، وقد رقط جلده بالبازلت الأسود والمعادن البراقة، وهو يحرس الجبل، والمياه الخضراء المترامية، ولا يستطيع أن يمر به إلا رع في قاربه الخالد.

وعندما يحل المساء ينحدر رع في جلال إلى الأفق الغربي، ويغرب في ظلمات الدوات عند ثغرة أبيدوس، وكم هو جميل قارب مسكتت عند المساء، إنه مزيج من الألوان الرائعة البديعة مزيج من القرمز والأرجوان، واللازورد والذهب الخالص الجميل.

وعند ثغرة أبيدوس تقف جمهرة من الآلهة في انتظار قارب رع، ليعدوه لرحلته خلال ظلمات الدوات، أرض الليل والظلام الدامس، وهناك يتعرى القارب من حلاه، ويمر خلال الدوات عاريًا من الجلال بسيطًا، وفيه يرقد جسد رع ميتًا قد فارقته الحياة.

ويمسك الآلهة بالجبال، ويجرون القارب على صفحة النهر الحزين، ويتسع النهر رويدًا رويدًا، وتحتل ربات الليل الاثنتا عشرة أماكنهن، حيث يقدن القارب خلال الظلمات، لأنهن قباطنة النهر ولا أحد غيرهن يعرف مجاهل الدوات حتى رع نفسه.

وأول مملكة من ممالك الدوات بلاد الليل والظلام الدامس هي نهر رع، وكم هي حزينة تلك المملكة، وإن لم يكن ظلامها دامسًا، لأن النهر في هذه المنطقة تحيط به أفاع ست على كل من ضفتيه، وقد التفت حول نفسها وتكومت وشرعت رءوسها، وقد اندلعت من أفواهها ألسنة اللهيب، وفي قمرة القارب يرقد رع ميتًا لا حياة فيه...

وفي مقدمة القارب يقف آب – نوت فاتح الطرق، وصار به الساعة الأولى، وحول القمرة يقف بعض الآلهة، أولئك هم حماة رع وحراسه من الأرواح الشريرة، ومن هجمات أبيب عدوه اللدود في بلاد الدوات، بلاد الظلمات.

ويمضي قارب رع وئيدًا خلال الدوات، إلى بلاد الظلام الدامس بلاد الرعب والفزع حيث يسكن الموتى، وحيث يرقد أبيب في انتظار مقدم رع، وهكذا تنقضي أول ساعة من الليل.

وعند حدود كل مملكة من ممالك الدوات بوابة عالية الأسوار لا يمكن أن يتسلقها إنسان، وقد رشقت في أعلى الأسوار رءوس الحراب مدببة حادة، أما الباب فمن الخشب، وهو يدور على محور وتقوم على حراسته أفعى مهولة، فلا تسمح لأحد بالدخول إلا أولئك الذين تعرف أسماءهم، وعند منحنى الممر، ثعبانان كبيران مجنحان، ينفثان لهيبًا ممتزجًا بالسم، أحدهما من أعلى الباب والآخر من أسفله، فيتقابل لسانان من اللهيب المسموم عبر الممر، الذي يقف في نهايته حارس يقظ.

وربة الساعة الأولى تفتح الطريق أمام ربة الساعة الثانية، وسرعان ما تتسع الأبواب، ويختفي ذلك اللهب المسموم، ويمر قارب رع في سلام..

أما المملكة الثانية من ممالك الدوات، فهي أو — نس، وإن كان أهل الشمال وجزر المياه الخضراء يدعونها أورانوس، وهناك يتسع النهر ويحمل على مياهه القاتمة أربعة روامس، ليس لها مجاديف ولا ساريات، ولكنها طافية على النهر، يحملها التيار كما يشاء، وهي روامس غريبة حقًا لأنها تحمل أطيافًا كثيرة، لها أشكال الرجال، وفي هذه المملكة ينتشر سلطان رع، فهو الملك والسيد، ويحيا سكانها في سلام، لأن أحدًا لا

يستطيع أن يخترق تلك البوابات التي يغمرها اللهيب المسموم، ويقف عليها حراس أشداء.

نعم سعداء، أولئك الذين يعيشون في مملكة أو – نس، لأن أرواح القمح تعيش بها، ففيها نبرا، وتيبو – ين، الآلهة التي تصنع القمح والشعير المحصول فتزيد الخيرات والثمرات.

ويمضي قارب رع وئيدًا خلال الدوات، إلى بلاد الظلام الدامس، بلاد الرعب والفزع، حيث يسكن الموتى، وحيث يرقد أبيب في انتظار مقدم رع، هكذا تنقضي الساعة الثانية من الليل، وربة الساعة الثانية تفتح الطريق أمام ربة الساعة الثالثة، وسرعان ما تتسع الأبواب، ويمر قارب رع في سلام..

أما المملكة الثالثة من ممالك الدوات فهي نهر الإله الواحد، وهنا "أمنتت" الجميلة، مملكة أوزيريس، وعلى ضفتي النهر تماثيل للآلهة، وهي تحيط بأوزيريس، وقد اكتسى أوزيريس مهابة وجلالاً، يليقان بملك عادل، وقد توج رأسه بتاج الجنوب الأبيض، وتاج الشمال الأحمر.

كم هو عظيم أوزيريس إله الموتى، لأن كل من يموت يقف أمامه للحساب، حيث توزن قلوب الموتى في الميزان، فتوضع في كفة، وفي الكفة الأخرى ريشة الحق، أما عرشه فقد استوى على ماء غدير عميق رقراق، وقد نبتت على سطح الغدير زهرة لوتس وحيدة لونها كالسماء في البكور، وعلى زهرة اللوتس يقف أطفال حورس الأربعة، الذين يعاونون أوزيريس في

الحساب، ويحفظون أجساد الموتى، ولهم الشرق والغرب والشمال والجنوب تحميهم الربات الأربع العظيمات، وهم يقفون على زهرة اللوتس ووجوههم إلى أوزيريس، وأولهم له وجه إنسان، والثاني له وجه قرد، والثالث له وجه ابن آوي، والرابع له وجه طائر جارح وهذه هي الساعة التي يخشاها الأشرار، لأنهم يؤخذون بما قدمت أيديهم، ولا منقذ لهم ولا معين.

وقلب الشرير ثقيل بما يحمل من وزر، ولذلك فهو يغطس في الماء ويظل يهوي إلى القاع حتى يصل إلى فكي أممت آكل القلوب، وعندئذ يساق الشرير إلى ظلمات الدوات ليعيش مع أبيب الكريه، وليقذف به بعد ذلك في حفرة من النار.

ولكن هناك أيضًا المؤمنون المحسنون، الذين لم يلحقوا أذى بإنسان، وأعانوا الأيامى، ورعوا اليتامى والمساكين، وقدموا الطعام للجائعين، وكسوا العراة، أولئك الذين لم يقترفوا إثمًا ولم يسيئوا إلى إنسان، عندما يقبل أولئك على أوزيريس. ويضع قلوبهم في كفة ميزانه، تجد قلوبهم أخف من ريشة الحق، فتهبط كفة الريشة، وتشيل كفة القلب المؤمن، وعندئذ يتناول توت المزدوج العظمة ذلك القلب، ويودعه صدر صاحبه، ثم يتناول حورس يده ويقوده إلى ظل عرش أوزيريس حيث يعيش في مملكته إلى أبد الآبدين، وعندئذ فقد يستطيع أن يرى أوزيريس، لأن أرواح الموتى لا تستطيع رؤية الآلهة طالما هي تسكن الجسد، وتتعرض للانفعالات، وعندما تتحرر من هذه القيود، ثم تنطلق في تلك العوالم الطاهرة، عوالم

الدار الآخرة، وعندئذ يصبح ذلك الإله ملكهم وسيدهم يعتمدون عليه ويجتلون طلعته، ويستمتعون بذلك الجمال الذي لا يستطيع تصوره إنسان.

ويمضي قارب رع وئيدًا خلال الدوات إلى بلاد الظلام الدامس بلاد الرعب والفزع، حيث يرقد أبيب الكريه في انتظار مقدم رع، وحيث حفر النار تعد للأشرار، وهكذا تنقضي الساعة الثالثة من الليل، وتفتح ربة الساعة الثالثة الطريق أمام ربة الساعة الرابعة، فتتسع الأبواب، ويمر قارب رع في سلام.

أما المملكة الرابعة من ممالك الدوات فهي "ري – ستاو" أو فوهة المقبرة، والمملكة يخيم عليها الخراب، فهي صحراء لا نهاية لها، ورمال جائعة براقة، لا نبات فيها ولا حياة عليها سوى بعض الثعابين الضخمة، تتلوى رائحة غادية، تفح فحيحًا مخيفًا، وتنشر أجنحتها، وتندفع كأنها في سباق رهيب، ولكن غضبها ليس موجهًا إلى رع، فهو يمر بينها آمنًا سالمًا، والنهر في هذه البقعة تائه ضال بين الصخور والرمال، ومرجاه عميق ضيق يحده حائطان من الصخر الشديد الانحدار، الذي تصفعه الرياح فتئن لصلابته، ولأوزيريس الكلمة على هذه الصحراء فمن يمر بها آمن سالم، لا خوف عليه، وفي هذا المجرى الضيق لا يستطيع قارب رع أن يواصل الرحيل، ولذلك فهو يتحول إلى أفعى هائلة قوية، عند مقدمته رأس أفعى شرسة متيقظة، وعند المؤخرة رأس أفعى ذات أنياب مميتة السم، وتنساب تلك الأفعى على الرمال كما ينساب القارب على صفحة النهر.

ويمضي قارب رع وئيدًا خلال الدوات إلى بلاد الظلام الدامس بلاد الرعب والفزع، إلى حيث يربض أبيب في انتظار مقدم رع، وهكذا تنقضي الساعة الرابعة من الليل، وتفتح ربة الساعة المنقضية الطريق أمام ربة الساعة الخامسة، فتتسع الأبواب ويمر قارب رع في سلام.

أما المملكة الخامسة من ممالك الدوات فهي المختفية، حيث يسكن سوكار الإله الصقر رب المدفونين؛ وهو يقيم في جحر عميق في باطن الأرض، ويقوم فوق الحجر تل من الرمال ويحرس مسكنه أبو الهول عن يمين وعن شمال، لكل منهما جسم أسد ووجه رجل ومخالبهما بارزة كالحيوانات المفترسة حين تتحفز للهجوم، وفيما بينهما تربض أفعى مثلثة الرءوس، وبين جناحيها يقف سوكار، وله جسم إنسان ورأس صقر، وهو شرس وقوي كالصقر، وعقابه شديد على أولئك الذين يعصونه، وقرب مسكنه بحيرة يغلي ماؤها كأن تحتها موقدًا، وفي البحيرة الملتهبة يلقي بالعصاة، الذين يصرخون مستنجدين برع عندما يمر بهم القارب، ولكن رع يرقد في القارب ميتًا في انتظار خيبيرا، ولن يجيب على صراخهم أحد، طالما القارب يواصل المسير.

وعلى الحافة الأخرى من الأخدود يقوم صرح عال ممهد، هو دار الليل والظلام، وعلى كل جانب من جانبيه طائر، ويتلوى حواليه ثعبان مزدوج الرأس، وهو رافع الرأسين يفح ويهدر. وهو متحفز للهجوم على من يحاول دخول البناء، وكم هو حارس أمين، لأن خيبيرا روح العالم العظيمة، تسكن دار الليل والظلام. خيبيرا إلهة البعث، تظل في انتظار رع

على صورة جعران، ويرفرف على القارب عندما يصل، ويظل طائرًا فوقه حتى يحين موعد إعادة الحياة إلى الإله الميت.

ومن خلال الظلام الدامس، ينحدر على المجرى الضيق شعاع من النور، وتلك هي نجمة الصباح تنتظر عند البوابة لتقود القارب إلى الأمام، لأن ظلام الليل يعني اقتراب حلول اليوم الجديد.

ويمضي قارب رع وئيدًا خلال الدوات، إلى بلاد الظلام الدامس، بلاد الرعب والفزع إلى حيث يرقد أبيب الكريه في انتظار مقدم رع، وهكذا تنقضي الساعة الخامسة من الليل، وتفتح ربة الساعة المنصرمة الطريق أمام الساعة الجديدة فتتسع الأبواب ويمر قارب رع في سلام.

أما المملكة السادسة من ممالك الدوات، فهي "نبع المياه" ويحكمها أوزيريس الإله العظيم، وحاكم مدينة دادو، الإله الحي، خالق الناس والماشية، إله الخضرة الذي ينحني أمامه الناس جميعًا في إجلال وتقديس.

ويتخلص النهر من الرمال مرة ثانية، ويعاود القارب السير على النهر مرة أخرى، ويشيع السرور بين ركابه، لأن ساعات الليل أوشكت أن تنقضي، وعلى ضفتي النهر تماثيل للآلهة، غامضة عجيبة، وهناك سبعة صولجانات وأسد قوي، يزأر في الظلام، ويكاد لا يرى إلا على الضوء الضئيل الذي يشعه زورق رع، وهناك أيضًا ثلاثة كنوز يحرس كلاً منها ثعبان ينبعث من فمه اللهيب، وتلك الكنوز تحوي أشياء غريبة حقًا، ففي

أحداه رأس إنسان وفي الثانية جناح طائر، وفي الثالثة رجل أسد، وهناك أيضًا تعيش الأفعى ذات الرءوس الخمسة، وبين طياتها يرقد خيبيرا، إله البعث وعلى رأسه يضع الجعران، وعند قدميه رمز اللحم، وهكذا يبعث الحياة في الموتى، وهكذا سيرد الحياة إلى رع، فهذه أبعد حدود الدوات، وخلف البوابة يمتد الطريق إلى شروق الشمس.

ويمضي قارب رع وئيدًا خلال الدوات إلى بلاد الظلام الدامس، بلاد الرعب والفزع حيث يرقد أبيب الكريه، في انتظار مقدم رع، وهكذا تنقضي الساعة السادسة من الليل، وتفتح ربتها الطريق أمام الساعة السابعة، وتتسع الأبواب ويمر قارب رع في سلام.

أما المملكة السابعة من ممالك الدوات فهي الكهف السري، وهي مليئة بالأخطار والشرور، لأن أبيب الكريه يعيش في هذه المملكة وهو على شكل أفعى هائلة فاغرة فاها، تبتلع كل ما يأتي به النهر من ماء، فقد يتحكم قارب رع، ثم يفنى رع بعد ذلك، وعندئذ تسطير على العالم قوى الظلام والشر، وتنتصر على الآلهة.

ولكن إيزيس تقف في مقدمة القارب، إيزيس التي لا يستطيع أحد أن يقاوم سحرها، إيزيس أعظم الربات على الإطلاق، ويدين لها العالم بالحب والولاء، تقف مادة ذراعيها مرتلة كلمات القوة، فيعبر غناؤها المقدس ذلك النهر القاتم، ويلتف الثعبان "مهن" حول جسد رع، لأن ساعة الخطر قد حلت..

وعلى لسان رملي وسط المجرى يرقد أبيب، وطول هذا اللسان أربعمائة وخمسون ذراعًا ولفات أبيب تغطيه حتى لا يظهر منه شيء إلا النهر يجري من حوله، ويهدر أبيب ويزمجر، فتردد أركان الدوات زمجرته الشبيهة بالرعد، ولكن إيزيس لا تهتز لكل ذلك ولا ينقطع ترتيلها، ولا تتوقف حركات يديها السحرية وكلما استمرت في ترتيلها وتلاوة تعاويذها.. رقد أبيب على الرمال لا يستطيع حراكًا، وعندئذ تقفز سلك، وهر – دسوف من قارب رع ويوثقانه بالحبال، ثم يطعنانه بالمدى محاولين القضاء عليه. ولكن أبيب خالد لا يموت، وفي كل ليلة يقبع في انتظار قارب رع ليفتك به، ويمسك به سلك، وهر – دسوف حتى يمر القارب ويعبر الضفاف الرملية، وهو يقاوم ويجتهد أن يحل وثاقه، ولكن الحبال قوية، والمدى حادة نفاذة، وتذهب جهوده أدراج الرياح. ويمضي القارب قدمًا إلى مدافن الآلهة، التي تقع بجوار النهر، تلالاً عالية من الرمال؛ وعلى كل تل بناء؛ وعند نهاية كل تل رأس رجل ترقب مرور رع. ويمضي قارب رع وئيدًا هادئًا خلال الدوات؛ سائرًا خلال الظلام، إلى الشروق والنهار الجديد، وهكذا تنقضي الساعة السابعة من الليل، وتفتح ربتها الطريق أمام ربة الساعة الثامنة، ويمر قارب رع في سلام.

أما المملكة الثامنة من ممالك الدوات، فهي مثوى الآلهة، حيث يقيم الموتى من الآلهة، فهم يرقدون هناك في مثواهم الأخير، محنطين وملفوفين في لفات الكتان، كما يحنط الناس ويلفون، وعندما يمر بهم رع يحيونه في إجلال، ولكن أين هو من سماع صوتهم؟ إنهم عنه بعيدون، ولا يسمع لهم إلا هديرًا وغمغمة، كخوار الثيران المتوحشة، أو صراخ الطيور

الجارحة، أو عويل النائحات، أو طنين النحل في خليته، وأمام القارب يسير تسعة من الآلهة، أشكالهم غريبة، غامضة عجيبة، لا يشبهها شيء على الأرض، ويتقدم هؤلاء أرواح تاتانن الأربعة، على شكل كباش كبيرة متوحشة، قرونها متسعة مدببة، وقد توج أولها بريشة طويلة، وتوج الثاني بتاج الشمال الأحمر، والثالث بتاج الجنوب الأبيض، أما الرابع فقد توج بقرص الشمس، وكم هو قديم في ممفيس تاتانن، حيث يقع مثوى بتاح جنوب السور. ويمضي قارب رع وئيدًا هادئًا ويسير خلال الظلمات، إلى الشروق والنهار الجديد، وهكذا تنقضي الساعة الثامنة فتفتح ربتها الطريق أمام الساعة التاسعة، فتتسع الأبواب ويمر قارب رع في سلام...

أما المملكة التاسعة من ممالك الدوات فهي "عالم صور"، وهنا يجري النهر عنيفًا قويًا، ويندفع القارب بسرعة مع التيار، تحرسه اثنا عشر من آلهة النجوم، وفي أيديها مجاديف قصار، وهي على أتم استعداد لمساعدة سيدها عند الحاجة.

ولا يغمر الظلام هذه المملكة، لأن اثني عشر ثعبانًا كبيرًا تلتف على نفسها على ضفتي النهر، وينبعث من أفواهها ألسنة من اللهيب تنير صفحة السماء وأنحاء الدوات، ويطفو على النهر روامس ثلاثة غريبة الشكل، فهي لا تشبه القوارب المألوفة، وحمولتها أغرب من شكلها، فهي محملة بأطياف تشبه البقر والكباش، ولها أرواح الناس، وهؤلاء هم الذين تقدم لأرواحهم القرابين في الدار الأولى، وتندفع ربات النجوم في غناء لطيف، وتردد الأرواح غناءها، ويستمر الجميع في الغناء حتى يعبروا ذلك

الممر الطويل، في تمجيد رع، رب القارب، وخالق السماوات والأرض. ويستمر قارب رع سائرًا في هدوء خلال الدوات، راحلاً إلى حيث الشروق، والنهار الواضح الجديد، وهكذا تنقضي الساعة التاسعة من الليل؛ وتفتح ربتها الطريق أمام الساعة التالية؛ فيمر قارب رع في سلام..

أما المملكة العاشرة من ممالك الدوات، فهي نبع المياه والشطوط الرفيعة، وحاكمهما هو رع وسكان المملكة يهرعون للقاء ملكهم، عندما يمر على النهر الدفاق، وهنا نجد المجرى عميقًا منحدرًا والقارب يندفع بعنف مع التيار، والحراس مسلحين بأسلحة براقة، وعلى استعداد لحماية ملكهم، وعلى وجوههم نور كنور الشمس، وعلى الشاطئ ربات أربع يبعثن بأشعة من نور، تبدد الظلام أمام موكب رع على النهر الخالد.

وأمام قارب رع تسير نجمة الصبح، على شكل ثعبان مزدوج الرأس، يسعى على قدميه، وعلى رأسه تاجا الشمال والجنوب، وبين طياته يقف صقر السماء العظيم، وهو سيد السماء، لأن نجوم السماء تتبعه، ولكن الناس يسمونه هسبر، ولوسيفر أيضًا، وفي رمس على النهر ثعبان كبير، هو روح الأرض، وهو يراقب أعداء رع في جنبات الدوات. ويمضي قارب رع قدمًا خلال الظلمات، إلى الشروق والنهار الواضح الجديد، وهكذا تنقضي الساعة العاشرة من ساعات الليل فتفتح ربتها الطريق أمام الساعة التالية، فيمر قارب رع في سلام.

أما المملكة الحادية عشرة من ممالك الدوات فهي "فوهة الكهف" وحاكمها رع، وهنا يجري النهر هادئًا منخفضًا، وهنا حيث التيار منعدم، يجر الآلهة القارب، وهم لا يجرونه بالحبال، ولكن بجسد الثعبان مهن، حامي رع، وفي مقدمة القارب نجمة نارية، ولكن ضوءها ليس في حمرة الضوء الذي يغمر هذه المملكة، فهي حمرة مخيفة مرعبة، تبعث الرهبة في القلوب، والأشرار يخشون هذه المملكة، لأن عقابهم ينتظرهم هناك، فهنا وهناك حفر من النار، ويحرس الحفر ربات تنفسهن نيران، ويمسكن بأيديهن سيوفًا من النيران، وهن يقطعن الأشرار بأسلحتهن، ثم يرمين بأشلائهم في النار حتى تحترق، وهنا يقف حورس ليرى أشلاءهم، لأنهم أعداء أوزيريس ورع، إنهم مقترفو الإثم وناشرو الفساد على الأرض، عصاة الآلهة، ولا منقذ لهم من ذلك العذاب، ولا فرار من النار، وبئس القرار، ويعبق جو الدوات برائحة هذه الأجساد المحترقة ودخانها.

وعلى الضفة البعيدة من النهر النجوم، فهناك "شدو" على هيئة ثعبان أحمر قرمزي اللون، والنجوم التي يتكون منها جسده عشرة عدا.. وهنالك كائن غريب أيضًا يبدو كثعبان مجنح ولكن له ساقين، وبين جناحيه طيف إنسان، ويسميه الناس آتمو ساكن هليوبوليس، وهو قديم، بل أقدم من رع نفسه، وهو الذي يبعث بنسيم الشمال الرطب إلى أرض مصر، وحوله تبدو عينا حورس. لقد بدأت أنفاس هذا الصباح الرطيبة تنبعث، وفي طياتها يقترب النهار الوليد. ويمضي قارب خلال الظلمات إلى الشروق والنهار الواضح الجديد، وهكذا تنقضي الساعة الحادية عشرة، وتفتح ربتها الطريق أمام الساعة التالية، ويمضي قارب رع في سلام.

أما المملكة الثانية عشرة من ممالك الدوات فهي "ولى الظلام وأقبل النور" وعلى مقدمة القارب ذلك الجعران الكبير "خيبيرا" متأهب ليرد الحياة إلى رع قبل أن يصل إلى حدود الدوات، وليست هذه المملكة كسابقتها.. لأنها منطوية في جوف ثعبان كبير ضخم.. اسمه حياة الآلهة.. وفي هذا الفراغ الواسع يسافر قارب ملايين السنين. ويجر القارب اثنا عشر من أتباع رع بعد أن يربطوه بالحبال، وفي جوف الأفعى يتحول رع إلى خيبيرا ويحيا مرة ثانية، لأن الرحلة خلال الدوات أوشكت على الانتهاء، وعند فم الأفعى تقف اثنتا عشرة ربة يتسلمن الحبال، ويجررن القارب كما يقذف غشاء الحبة بعد نمو النبات، لأن روح رع وحياته في جعران خيبيرا، وقد تم البعث ويخرج قارب رع من تيه الدوات بين الغناء والبهجة والفرح.

كم هو فاخر قارب مانزت وهو يجد نحو الشروق، وتنفتح الأبواب، أبواب السموات على مصاريعها ويطلع النهار، ومن بين الأعمدة المرمرية يخرج قارب رع. ويغمر النور جبل باخو. ويستقبل الثعبان الضخم حارس المياه الخضراء رع بابتهاج على الأفق الشرقي والأشعة تنسكب على مخالبه.كم هو رائع قارب مانزت المولود على النهر، وعندما يلتمع في وضح النهار، وفي الزبد عند مقدمة القارب تمرح سمكة "آبتو" وترى سمكة "آنت" تسبح في المياه الخضراء، ومن الأرض تتصاعد الصلوات والدعوات لأن جميع المخلوقات تمجد رع عند الشروق.

وتباركت يا رع عندما تشرق؛ فقد ولى الليل والظلام، وعند فجر اليوم تشرق وتمتلئ السموات بنورك.. أنت كبير الآلهة، لك المجد والنصر.

إن الآلهة يترامون عند قدميك كالكلاب ويتسابقون لتحيتك عند الفجر. تباركت يا رع عندما تشرق، فعند شروقك يشيع السرور في الناس، لأنك تحكم العالم، يا من تمجدك النجوم في السماء، ويقدسك آلهة الأرض.. يا رب السموات. تباركت يا رع عندما تشرق، فلا يستطيع أحد أن يصف مجدك يا رب الحكمة والحق، إن أرواح الشرق تنتظر، وأرواح الغرب عبيدك وخدامك، ويقدسك الشمال والجنوب. لك التقديس يا سيدنا. يا من خلقتنا؛ فإنك تشرق في أفق السماء، فتسبب للناس الحياة.. لك المجد يا رع عندما تشرق.. لك المجد يا رع عندما تشرق في جمال يا رع

الفهرس